الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
جامعة الشهيد حمه لخضر- الوادي

معهد الآداب و اللغات

قسم اللغة و الأدب العربي

رمز الحمام في الشعر الأندلسي

مذكرة تخرج ضمن متطلبات الحصول على ليسانس
في الأدب العربي – تخصص: دراسات أدبية

إعداد الطالبات:

- ✓ **ضو مبروكة**
- ✓ **عيادي هاجر**
- ✓ **بالحشاني لبنى**
- ✓ **سويد سلمى**

الأستاذ المشرف:

*** أ.بلحاج عباس**

السنة الجامعية: *2015 – 2016م / 1436-1437هـ*

شكر وعرفان

اولا الشكر و الحمد لله العلي الكبير مالك السموات و الارض العزيز القدير

الذي بفضل توفيق منه و بعونه انجزنا بحثنا المتواضع هذا .

و باسمنا نتقدم بالشكر مع فائق القدير و الاحترام الى استاذنا المشرف الذي

استقبلنا بصدر رحب الأستاذ المحترم: بلحاج عباس.

كما نتوجه بالشكر الى كل من ساعدنا في انجاز هذا البحث (الياس دباغ،

احمد ضو، استاذ هيكل) و كما نتوجه بالشكر الى عمال مكتبة الآداب و

اللغات بالمركز الجامعي بالوادي و عمال مكتبة جامعة الامير عبد القادر

بقسنطينة و عمال مكتبة دار الثقافة محمد الامين العمودي بالوادي

شاكرين لهم الاعانة الدائمة مع حسن المعاملة.

و الى كل من مدنا يد المساعدة من قريب او من بعيد نقول لهم دوما شكراً.

مقـــــدمة

بسم الله الرحمان الرحيم و الصلاة والسلام على أشرف المرسلين:

لقد عني الأندلسيون بمظاهر الطبيعة في بلادهم ، وصفوها فأحسنوا الوصف ، وصوروها فأبدعوا التصور ، وبثوها آلامهم و أشجانهم ، وصفو الأرض وما عليها من : أنهار ووديان وجبال و أشجار و أزهار و ثمار ولم يفت الشاعر الأندلسي ان يهتم بطيور الرياض ، فوصف ألوانها : بنقائها و زركشتها، و جاء في رسم أشكالها، و انتشى بغنائها الحنين و تغريدها الشجي.

شكلت الرياضة مكانا أمينا و رحيبا بتلك الاطيار التي تمرح على اغصانها، و تغرد على روابها، و تصدح بوحي من سحر انغامها، ورقة نوّارها، قد نالت الطيور من الانسان مودة واضحة ،و تغنى الشعراء بحنيتها ورقتها ، ومن تلك الطيور : الدليل و القمري و الزرزور و النسر والقطط ، بيد أَنَّ الشعراء أبدوا الشاعر جلّ اهتمامهم بطائر الحمام من بين تلك الطيور اذ كان من أكثر الأطيار ورودا على ألسنة الشعراء ، لما يتمتع به من جمال فاتن ، وتنوع في الأشكال و الألوان ، وما يصدر عنه من غناء شجي ، و تغريد عذب ، يثير في النفس اشجانها ، ويهيج في القلب أحزانه .

لقد تردّد ذكر الحمام في أشعار العرب ، وما يهيجه نوحها من كوامن الأشواق ن ولوعة الحنين ، و حرقة الجوى .

ففي رقة شجيه ما يبعث التذكر ، ويولد الشجون ويهيّج الأسى ، ويجدد رقة القلب ، حتى يجعل البكاء فرضا معها ، وتصابياً لازماً لأجلها .

رسم الشاعر الأندلسي للحمام لوحات شعرية نابضة بالحياة و الحيوية ضمت عناصر متعددة من الطبيعة ، انعكست فيها أحوال الشعراء النفسية و العاطفية ، و أحوال بلاد الأندلس و ما تميزت به من بيئة طبيعية و اجتماعية و سياسية.

و الدافع الذي جعلنا ندرس هذا الموضوع "رمز الحمام في الشعر الأندلسي" هو أن الأدب الأندلسي بصفة عامة لا يزال حقلا بكرا يحتاج الى كثير من الدراسات المعمقة التي تذهب به بعيدا

عن السطحية و السرد التاريخي، فتلتفت النصوص الشعرية ذاتها، أما الدافع الثاني: جمالية توظيف الحمام في الشعر العربي و ما يحمله من معان عدة تبرز جزالة و متانة التوظيف للشعراء و طريقة التغني به في قصائدهم.

هذا و قد نهض البحث على جملة من الأسئلة حاولنا الإجابة عنها منها:

- ماهي الدوافع المباشر و غير المباشرة التي أدت بالشعراء الأندلسيين إلى توظيف كلمة الحمام في شعرهم.؟
- كيف جَسَّدَ الشعراء الاندلسيون لفظة "الحمام" في قصائدهم؟.

و للوصول إلى ذلك اعتمدنا في هذه الدراسة على إجراءات منهجية متعددة منتزعة من مناهج مختلفة رأيناها مناسبة لطبيعة الموضوع و قادرة على دعمه و تصويب وجهته نحو هدفه.

انطلاقا من قناعتنا بأن الدراسة المنهجية الجيدة لأي بحث تقتضي الاستعانة بالمناهج التي تساعد الباحث على الولوج إلى عمق النص الشعري، و ان اقتضى الأمر تجاوز المنهج الواحد و المزج بين مناهج متعددة، و هذا ما حاولنا تطبيقه اذ لم نعتمد في استخدامنا للمناهج على كل ما تحتويه من مبادئ و انما جاء استغلالنا لبعض الاجراءات المميزة لكل منهج بهدف خدمة البحث و إضاءة العديد من جوانبه.

و من بين المناهج التي استخدمنا بعض اجراءاتها المنهج التاريخي الذي استفدنا منه في تتبع الرمزية في الشعر الأندلسي ، كما اعتمدنا أيضا على المنهج النفسي الذي يرتبط بالجانب الذاتي للشاعر وما يلائم تفسير بعض الظواهر النفسية و قد مزجنا هذه الدراسة النفسية ببعض التفسيرات الأسلوبية و الظواهر اللغوية التي أفرزتها تجربة الشاعر في هذا الغرض و هكذا كان العمل في هذا البحث قائما على وصف و تحليل و تطبيق يسيرُ على اجراءات منهجية متعددة.

و قد قسمنا بحثنا هذا إلى مدخل نظري و ثلاثة فصول و خاتمة. أما المدخل الاستهلالي، فقد خصصناه للربط بين العصر العباسي و العصر الأندلسي، و تناولنا في الفص الاول الشعر الأندلسي و اتجاهاته، شعر الطبيعة و اتجاهاتها الاندلسية، و تعرضنا في الفصل الثاني الى توظيف رمز الحمام في الشعر الأندلسي، أما الفصل الثالث و الأخير، فقد خصصناه إلى نظرة في حياة الشعراء الأندلسيين الذين وظفوا رمز الحمام.

وختمنا هذا البحث بخاتمة لحضْنا فيها نتائج كل الفصول و أهم ما توصلنا اليه من نتائج متواضعة و ملاحظات أساسية حول رمز الحمام في الشعر الاندلسي .

وقد اعتمدنا في هذه الدراسة على مصادر و مراجع متعددة أهمها كتاب الأدب الأندلسي مع الفتح إلى سقوط الخلافة لأ حمد حسن هيكل ،كتاب الأدب العربي في الأندلس لعبد العزيز عتيق ، كتاب مدخل إلى الأدب الأندلسي ليوسف طويل ،كتاب الرمز في الشعر العربي لناصر الوحِني ...الخ ، و غيرها ، و الحقيقة أننا عانينا صعوبات تحصلنا على المصادر و المراجع العامة بقدر ما كان في غموض العنوان و صعوبة تفكيكه ، ومن هنا كانت صعوبة الدراسة التطبيقية، يضاف إلى ذلك قلة الدراسات التطبيقية و النفسية المعمقة ، الأمر الذي دفعني الى الاستعادة من بعض المفاهيم البسيطة و المضي بها في التطبيق و رغم نقص إمكانياتنا المعرفية في هذا المجال .

وأخيرا نرجو أن نكون قد وفقنا من خلال هذه الدراسة و لو بالشيء القليل و أن يكون هذا البحث قد حقق و لو جزء يسيرا من نتائجه التي يصبوا اليها.

و إذ وضعنا هذه الدراسة المتواضعة بين أيديكم ، فإننا نلتمس العذر لما شابها من نقائص و حسبنا أنّا حاولنا ، وما ادخرنا من جهد في ذلك، و الله نسأله التوفيق و السداد .

الجانب النظري

المدخل

مدخل: الامتداد الشعري بين العصر العباسي و الأندلسي

أنكر شعراء هذا العصر الالتزام بتقاليد القصيدة القديمة فيما يخص المقدمة الطَّللية ، لأن ذلك لم يعد يتصل بحياتهم وبيئتهم وحضارتهم، ومن ثم افتتحوا قصائدهم بالغزل والوصف بدل البكاء على الأطلال مع التزامهم بالوزن والقافية.

ازدهر فن المديح ، حتى طغى على بقية الفنون وأصبح الشعر أداة للتكسب يغلب عليه الطابع الارستقراطي ، وتوسع الشعراء في المعاني القديمة مثل الكرم والشجاعة والإقدام .. إذ لم تعد هذه الصفات مجردة تطلق على الممدوح، بل أصبحت جزءا من نظرة مثالية يجسد بها المادح صفات المثل الأعلى كما هو الحال عند المتنبي .

أصبحت الحكمة جزءاً من الشعر كله، وخاصة المديح، فهي أحياناً مطالع قصائد تلخص معنى القصيدة كلها، واعتنت الحكمة بثقافة العصر وخاصة علم الكلام والفلسفة، فجاءت أشمل وأعمق.

غدا الهجاء فناً أَصيلاً في فنون الشعر، منه الهجاء الفردي حيث يجرد فيه الشاعر مَهْجُوَّه من الفضائل التي تطلق عادة على الممدوح، ومنه الاجتماعي مما ينظم في أوضاع المجتمع وفساده، و منه السياسي الملتزم بالأحزاب ، ومن أكبر شعراء هذا الفن ابن الرومي، وأبو العلاء والمتنبي.

شاع فن الرثاء واتخذه بعضهم وسيلة للكسب وبعضهم الآخر وسيلة للتعبير الفلسفي كما هو الحال عند المعري، أو لتجسيد المثل العليا كما هو الحال عند المتنبي.

بلغ الوصف درجات عالية في التطور من وصف الطبيعة الخارجية إلى وصف النفس الإنسانية.

تطور فن الغزل الذي صار مقدماً في قصائد المدح والهجاء واستقل في قصائد خاصة عب رت عن الشوق والحنين والوله والفرح والحزن. فقد انتشر الترف والغنى الفاحش وشاعت دور الخمر والغناء، فتبارى الشعراء في وصف الخمر، وتجاوزوها إلى التهتك والسخرية بالعقائد الأمر الذي دفع إلى ظهور الزندقة.

أصبح الزهد موضوع أساسياً، فقد نظم فيه معظم الشعراء، وتفرغ له بعضهم، وقد نتج هذا الموضوع ليكون رد فعل على المجون والتهتك، وفيه تبنى الشعراء محاربة الفساد والدعوة إلى التقشف ونبذ الملذات والانقطاع إلى عبادة الله.

وقد تطور التصوف عن الزهد لكنه تميز بالتأمل والبحث الفلسفي في مسائل منها ذات الله، ووحدة الوجود ، وما يتبعها من معانى الفلسفة، اطلع شعراء هذا العصر على ثقافات متنوعة يونانية وفارسية تاريخية وفلسفية إضافة إلى الثقافة الإسلامية فانعكس ذلك على إبداعهم الشعري ، وظهر ذلك واضحاً في أشعار المعري والمتنبي ، وأبي تمام وابن الفارض وغيرهم.

طالت القصائد في هذا العصر حتى كادت تقترب من الملاحم كما هو الحال في قصائد أبي العتاهية وابن الفارض. كما كان التوسع والإكثار من ألفاظ المجاز والتشبيه والاستعارة والكناية وظهرت العناية بألوان البديع كالجناس والطباق والتورية ونحوها.

شاعت الألفاظ المولدة التي نتجت عن البيئة الحضارية الجديدة كما دخلت الألفاظ الأعجمية بسبب التداخل مع اللغات الأجنبية.

في مجال الأوزان، فإلى جانب الأوزان الطويلة التي ورثوها عن القدماء التفتوا إلى أهمية الأوزان الخفيفة التي صارت محل اهتمامهم كما نظموا المقطوعات والمزدوج والمسمط.

فتح المسلمون الأندلس ، و في العصور الأولى كان غالبية أهل الأندلس من النصارى، ولم تترسخ دعائم اللغة العربية وآدابها إلا بعد أن توطدت أركان الدولة، وعم الاستقرار وتغلبت الحضارة العربية الإسلامية على مناحي الحياة المختلفة، وصارت اللغة العربية وآدابها الينبوع الذي يسجل ويصور ويعبر عن مباهج الحضارة ، ولما شاع الشعر كان في أوله تقليداً خالصاً للشعر في المشرق حتى أطلقوا على نوابغ شعرائهم ألقاب شعراء المشرق فكان غالب الأندلسي يلقب بأبي تمام وابن هاني يلقب بالمتنبي ، وابن زيدون يلقب بالبحتري، وهذا الأمر لم يقف عند الشعراء بل كان معروفاً في ألقاب الخلفاء فعرف عندهم المنصور والمهدي والمأمون ...وغيرهم.

وشعراء الأندلس وأهلها يتبعون أهل المشرق ويقلدونهم وينظرون إليهم على أنهم المثل الأعلى في كل شيء وكما سرى ذلك على الشعراء فإنه كان سائداً على اللغويين والنحويين والصرفيين، ولذلك فإن الشعر الأندلسي في أول نشأته وانتشاره كان ذا طابع مشرقي خالص حتى قيل إنه كان من الصعب أن تنسب القصيدة إلى بيئة الأندلس بقدر ما تمتاز بخصائص الشعر المشرقي، وقد ظهر ذلك في محاكاة بعض الشعراء الأندلسيين للشعراء في المشرق مثلما هو معروف عن الشاعر الأندلسي يحي الغزالي الذي دخل بغداد وقال شعراً يحاكي فيه أبا نواس حتى ظن الناس أنه يروي شعره ولكنه قال لهم " خفضوا عليكم فإنه لي فأنكروا ذلك فأنشدهم قصيدته التي أولها:

تَدَارَكْتُ في شُـــربُ النَبيذ خَطـــائي وَفارَقَـــت فيه شيمـــتي وَحـــَيائي

أضف إلى ذلك المعارضات التي قلد فيها الأندلسيون المشارقة في الموضوع والوزن والقافية في مثل معارضة سليمان المستعين الأموي لشعر قاله الرشيد في جواريه في قوله:

مُلـــك الثَلاث الآنســـات عَنانـــي وَحللـــَن منْ قَلْـــبي بكـــُل مَكانُ

قال المستعين:

وتمَلكـــتُ نفْســـي ثلاثـــاً كالدُمى زُهـــر الوجُـــوه نَواعمُ الأبْـــــدانُ

والشاعر الأندلسي في معظم قصائده المديحية كان مقلداً للمشارقة وبخاصة في بنية القصيدة حيث نجده يقدم بالأطلال والنسيب ووصف الرحلة ثم يخلص إلى المدح، ولما كانت البيئة الأندلسية تنعم بالترف وجمال الطبيعة وحسن فتيانها وفتياتها، فإن الشاعر الأندلسي استغل هذه المظاهر ولجأ إلى الشاعر المشرقي مقلداً لموضوعاته الغزلية وبخاصة الجانب الغلماني فيها كما قلده في وصف الخمر ومجالسها.

كل هذا لا يعني بقاء الأندلسيين يقرضون شعرهم وهم يرتدون عباءة المشرق، وإنما ذلك كان من سنن المرور إلى مرحلة التميز والاستقلال التي ظهرت جلية واضحة في معظم نتاجهم الشعري، و إن

ظل بعضه مقلداً في جزئيات منه ومع ذلك تفردت الشخصية الشعرية الأندلسية بسماتها، ويمكن متابعة ذلك في أثناء قراءة وتذوق شعر الطبيعة والمراثي والاستغاثة وكذلك الغزل والمدح، وحين يستوقفك شعراء من أمثال ابن زيدون ، وابن خفاجة ، والأعمى التطيلي، وابن حمديس، وأبي البقاء الرندي، ولسان الدين الخطيب، وابن قزمان، تلاحظ ذلك التمييز وتلك العبقرية الشعرية الأندلسية.

عاشت الأندلس أيام حكم الولاة وأمراء الدولة الأموية مرحلة من التكوين والتأسيس، ولم يتمكن المسلمون وقتها من الاندماج المبكر مع البيئة الجديدة فشعرهم على سبيل المثال لم يتطور عن شعر المشارقة، ولم يدخل بمرحلة التأثر بطبيعة الأندلس بمقدار ما انشغل بالأحداث والوقائع الدائرة على أرضها، وما أن جاء عصر ملوك الطوائف ثم المرابطين ومن بعدهم الموحدين حتى تهيأت البيئة الأندلسية بنهضة أدبية عظيمة شجع على ازدهارها أولئك الأمراء الذين اتخذوا من الشعر سلاحاً ومتاعاً وأنساً في حياتهم فارتفعت مكانة الشعر عند الجميع وأخذ الشعراء يقطعون الأندلس طولاً وعرضاً يقصدون بيوت الأمراء فينالون جزيل الصفات ،وتراسل كبار الأندلسيين بالشعر وجعلوا يتبادلون بالقريض إلى أن أصبحت حياتهم كلها شعراً ، ينامون على أنغامه ويستيقظون على إنشاده فعبرّ الشعراء في هذا الاتجاه عن حاضرهم ، ومثلوا بيئتهم مع الاحتفاظ بقدر من التقليد والتوسع فيه بما يعكس تطورهم وثقافتهم ويلاحظ ذلك بوضوح في شعر الحنين والطبيعة ورثاء المدن والشعر التعليمي.

بالرغم من تقدم المشارقة في هذا المجال فإن الأندلسيين قد لحقوا بهم وتقدموا عليهم وفاقوهم فيه كماً وكيفاً ويرجع ذلك إلى التقليد الذي جرى عليه الأندلسيون من الرحلة المطردة إلى المشرق لطلب العلم.

-ان معظم من رحلوا من الأندلس كانوا من أصحاب القلوب والأقلام الشاعرة وأهم المعاني التي تدور عليها قصائد الحنين عندهم هي:

الشوق إلى الأوطان وتجاربهم الذاتية في ديار الغربة وتصوير ملاعب الصبا، وذكر أيامهم وعهودهم السعيدة في ديارهم والمزج بين الحنين والطبيعة، ومن ذلك ما قاله أبو الحسن سعيد العنسي لما قدم إلى مصر وشعر بالوحشة وتذكر عهده بالأندلس فقال:

هَذْهِ مصـــر فـَـأيْـــنَ المِغْـــــربُ مـُـذْ نَأَى عـَـــــني فعَيـــني تَسْكَـــبُ

فَارقـَـــتْهُ النفْـــسُ جهـــداً إنـــمَا يُعـــرَفُ الشَـــيءُ مَـــا يَذهـــــــبُ

لما سحر الأندلسيون بجمال الطبيعة واستولت مباهجه على عقولهم وتوسعوا وابتكروا في تصوير الرياض والقصور والجبال والوديان والأنهار ، ومزجوا بين العناصر وبين ما كانوا يلعبون فيه من مجالس لهو وغناء فأحسُّوا وأجادوا واستعانوا بالاستعارات والتشبيهات، وشخصوا الأمور المعنوية في الخيال، فهذا أحد الشعراء يصف طبيعة الأندلس وما تزخر به من مظاهر أخاذة فيقول:

أنَهـــارُهَا فضـــة وَالمسْـــكُ تُربَتـــَها وَالخـــزُ روَضـــَتها والـــَدر حَصْـــباءُ

و للهَـواء بها لُطـْـفُ يـــَرَق بـــه مـــَنْ لاَ يـــَرَقُ وَتبْـــدُو منـــهُ أَهْواءُ

وهو من الاتجاهات التي توسع فيها الأندلسيون وفاقوا فيها المشارقة حتى صار هذا الفن فناً قائماً بذاته وكان الطابع على هذا اللون من الرثاء هو الأسى العميق والتماس العظة والتأسي في قيام الدول ثم زوالها منذ القدم وإرجاع نكبتهم إلى فعل الدهر حيناً وإلى أنفسهم حيناً آخر وتصوير ما أصاب المسلمين في الأندلس من ذل وهوان، وقد امتازت مراثيهم بغلبة عنصر العاطفة الشجية التي تكشف عن عمق المأساة وشدة الحزن والألم والفقد لمدنهم وحضارتهم التي شيدوها وعجزوا عن الحفاظ عليها، ولم تخل تلك المراثي الباكية من استفادة شعرائها من عناصر الفن التصويري التي زادت من التأثير في النفوس والاستنكار والعجب من الأسباب التي أدت إلى هذه المأساة فانظر إلى ابن خفاجة يرثي سقوط مدينة بلنسية بقوله:

عَاثـَـت بساحتـــك العِـــدَا مَحـا محـــــــاسنكَ البـَـلا وَالـــنـــارُ

فإذَا تـــَردُ في جنابك نَـاظـــرُ طَـــــالَ اعْتبـــارُ فيـــكَ وَاسْتعْبارُ

أَرْضُ تَقَـــاذَفَتْ الخُـــطُوبُ بـــأهْلهَا وَتمَـــــَخضتْ بخـــَرابهَاَ الأقْـــــدارُ

كـَتَبْ يـَــد الحـــَدثان في عرصـــاتهَا لَا أنْتَ أنت ولَا الـــــــــــديَارُ ديارُ

هذا اللون من الشعر أبعد ما يكون عن الشعر بمعناه الخالص، لأنه شعر لا يلتقي مع الشعر الفني إلا في صفة النظم.

وهو الشعر الذي يراد به الأراجيز والقصائد التاريخية والتعليمية التي جاءت في حكم الكتب، وكذلك الكتب التي نظموها، فجاءت في حكم الأراجيز –القصائد –وهو ما يعبر عنه المتأخرون بالمتون المنظومة.

وقد عرف هذا اللون عند المشارقة منذ العصر الأموي وتطور في العصر العباسي، وعرف من المشاهير الذين نظموا هذا اللون بشر بن المعتمر، وابن المعتز، وابن الهبارية الذي عرف بكتابه: "الصادح والباغم"، الذي بناه على أسلوب الرجز المزدوج وفيه قصص وأمثال وحكم وأقوال أدبية ترقى إلى تقو يم الأخلاق.

وقد توسع الأندلسيون في هذا اللون فكتبوا القصائد التاريخية، ثم ابتدعوا كتابة العلوم المختلفة بطريقة النظم، فألفوا كتباً في البديع والنحو والتوحيد والعروض والفقه والحديث والمواريث والبلاغة والفلك والحساب والهندسة، ومما هو مشهور في مجال الدارسين في علم النحو: ألفية ابن مالك التي وضع فيها كل قواعد النحو العربي، وقام بشرحها العديد من النحويين.

1–الموشحات:

وهو فن جديد في شعر المتقدمين استنبطه أهل الأندلس وسموه موشحاً لما فيه من الصنعة والتزيين، فلأنهم نظروا إلى وشاح المرأة وما فيه من ترصيع وتكريس وتفصيل فشبهوه به في أسماطه وأبياته وأفعاله.

وكان لانتشار ظواهر اللهو والسمر والغناء أثر في اختراع هذا الفن وازدهاره في الأندلس، لأن الشعر الخفيف هو المادة الأصلح للغناء والإنشاد، والغناء نفسه هو الذي حدد له وزنه وحرره من قيود الشعر التقليدية، ولابد أن يكون هذا الفن قد تأثر بطبيعة الأندلس وبالفنون التي كانت سائدة في تلك البيئة ، ولعل القول بأنه كان متأثرا بالشعر الإسباني القديم الذي كان ينشده شعراء جنوب فرنسا المعروفون بشعراء: التروبادور، ما يؤكد وجود علاقة بين الأدب العربي والإسباني، وإن تأثر الشعر العربي بذلك فهذا لا ينقص من إبداعهم بقدر ما يدل على ملكاتهم التي كانت مهيأة لأن تنتج من الأصالة العربية والبيئة الجديدة ما يميزها ويؤكد حرصها على التطور والتجدد وهناك من القائلين بأنه لم يكن للإسبانيين موسيقى راقية قبل الفتح الإسلامي فلما فُتحت الأندلس وانتشر الغناء العربي، تهذّبت موسيقاهم واصطبغت بألوان عربية بينة، وليس غريباً أن يكون ذلك فإن كان العرب قد تأثروا بالإسبان فإن الإسبان تأثروا بالعرب وكل منهم جدّد وفق ما وصلت إليه قدراته من التجديد.

2-الزجل:

وهو كذلك فن وليد البيئة الأندلسية، وخرج من فن التوشيح، فإن كان الموشح فناً يختص بالمتعلمين والمثقفين بثقافة أدبية راقية، فالزجل جاء ليصور ويعبر عن ثقافة العامة فصار الزجل فناً شعبياً يتوافق مع الغناء الشعبي، وقد مر الزجل بدورين، الدور الأول: دور الأغنية الشعبية التي تأثرت إلى حد ما ببعض أشكال الموشحات ، والثاني تطور الزجل، وقد عرف منذ القرن السادس حيث شهد نهاية ملوك الطوائف وبداية عصر المرابطين الذين لم يكونوا على إلمام عميق باللغة فآثروا الزجل ومن ثم ازدهر في عهدهم.

3-شعر الاستغاثة:

وهو من الفنون التي يمكن القول بأن الأندلسيين قد استحدثوها ففيها يقوم الشعر على استنهاض عزائم الملوك وهمم المسلمين في شتى أقطارهم كي يهبّوا بباعث الأخوة الإسلامية لنجدة إخوانهم في الأندلس، حيث شهد شعراء الأندلس تساقط قواعد المسلمين ومدائنهم تباعاً في يد النصارى، كما

شاهدوا ضياع معالمها الإسلامية وطرد أهلها منها والافتنان في صور تعذيبهم فاستولى عليهم الأسى والذهول، ولم يكن لديهم ما يملكون سوى الشعر الذي لجؤوا إليه ليخاطبوا قلوب ملوك المسلمين، وملوك المغرب من مرابطين وموحدين بوجه خاص لعلهم يلقون الاستجابة لصرخاتهم، وقد كثر شعر الاستغاثة في الأدب الأندلسي حتى صار بكثرته وتنوع صوره فناً جديداً في الشعر الأندلسي، بل في الشعر العربي كله لأنه نابع من صميم مأساة الأندلس، يقول ابن الأبار في قصيدته التي يستغيث فيها بسلطان تونس في أثناء حصار بلنسية:

أدَرِكَ بَخَيْـلَك خَيـــل الله أنْـــــــدلساً إن السَبيـــلُ إلـى منجاها دَرَساً

وهَبْ لهَا منْ عَزيزُ النصْر مَا التَـــــمَستَ فَلَـــمْ يَزلُ منَك عَزيز النَصـــر مُلتَمســـاً

ويقول من قصيدة أخرى:

نَادتـــكَ أنْدَلُـــــــسٌ فلـــبٌ نداءهـــا واجْعَـــلْ طَـــواغيتُ الصَليـــبُ فداءهَا

صَرخـــتُ بدعْـــوتكَ العـــلِيَة فاجَبـهَا من عاطِفَـــــاتَك مَا يَـــقي حُوبَـــاءهَا

.2موضوعات الشعر الأندلسي بين التقليد والتجديد:

أ.الوصف:

لقد وصف شعراء الأندلس كل ما وقعت عليه أعينهم وسائر حواسهم من مشاهد الحياة، فوصفوا العمران، ومجالس الأندلس والطرب والرقص والشراب والصيد وأدواته والنساء وأحوالهن، ووصفوا الحرب والسلاح والسفن ووصفوا الحيوانات والطيور وكان وصفهم في الغالب يأتي ممتزجاً بالأغراض الأخرى، واستطاعوا أن يتفننوا فيه بعض الشيء عن المشارقة، ففي وصفهم للمعارك جودة وتفوق، لأن الحروب بين المسلمين وأعدائهم من الفرنجة لم تنقطع ولم تهدأ، ولهذا حفلت مدائح الملوك والأمراء، بذكر المعارك والجيوش وأدوات الحرب، وكان في طليعة هؤلاء ابن هاني وابن خفاجة.

وقد اشتهر شعراء الأندلس بوصف الطبيعة الذي لم يأت من فراغ بل نبتت جدوره، وأصوله في المشرق العربي وترعرع وازدهر في الأندلس التي منحها الله طبيعة فاتنة بحيث كانت أغنى بقاع المسلمين منظراً وأوفرها جمالا إذ ترتفع فيها الجبال الخضراء وتمتد في بطاحها السهول الواسعة، وتجري فيها الجداول والأنهار، وتغرد على أفنان أشجارها العنادل والأطيار، هذه البيئة المتفردة استولت على نفوس الشعراء وجعلتهم يتفننون ويبتكرون في وصف جمالها ومن أشهر شعراء هذا الموضوع ابن خفاجة وابن زمرك والمعتمد بن عباد وابن سفر المريني الذي قال:

في أرْض أنْدَلـــــــــس تَلتـَـذُ نُعْمـَـاءُ وَلَا يُفـَـــــارقُ فيهـَـا الَقلبُ سَـــــرَاءُ

وَليـَــسَ في غَيـــرهَا بَالعَيـْشُ مُنتَفـــعُ ولَا تَقـَــوُم بحـــق الَأُنـــــــس صَـــهْباءُ

ب.الرثاء

وهو من فنون الشعر الأندلسية التي احتذى فيها الأندلسيون المشارقة ذلك الرثاء الذي كان يأتي صادقاً مفعماً بالعاطفة وحرارة الأسى إن كان المصاب ابناً أو أخاً أو أباً أو أماً، ويأتي فاتراً ضعيفاً إذا كان عملاً رسمياً يسجل فيه الشاعر موت أحد الملوك أو القواد أو الأشراف وتوسعوا في هذا الموضوع وطوروا في مفهومه تبعاً للظروف الجديدة التي حلت بهم، وذلك برثاء مدنهم التي ضاعت من أيديهم نتيجة للفرقة والضعف أو الطمع أو الهوان وغلبهم عليها أعداؤهم وأخرجوا وهم منها مشردوون في أنحاء الأندلس أو فارين إلى المغرب ، وقد حز في نفوسهم أنهم كانوا يشهدون ديارهم وهي تنتزع مدينة بعد أخرى و رأوا المجد الذي بناه أجدادهم بالدماء تتداعى أركانه ولا يملكون أمام هذا الضياع إلا البكاء والتفجع عليه بشعر يفيض أسى ويسيل دموعاً، وقد تطور إلى لون جديد من الرثاء وهو شعر الاستغاثة الذي أظهر فيه شعراء الأندلس دعواتهم للمسلمين وملوكهم لإنقاذ بلادهم التي تهاوت تحت قوة الأعداء وتهاون المسلمين، ومن أشهر من عرف بشعر هذا الموضوع، أبُو البقاء الرندي، وابن خفاجة، والمعتمد ابن عباد وابن الأبار.

ج.الغزل:

كان لجمال طبيعة الأندلس، وما صبغه هذا الجمال من رقة الطباع أثره البارز في انقياد القلوب الشاعرة لعواطفها، فأحبت وعشقت وفاض عشقها وحبها غزلا فياضاً رائعاً وأصبح سمات هذا الغزل تتمثل في رقته الناشئة من التفنن البياتي في وصف محاسن من يقع الشعراء في حبهن من النساء الأندلسيات، وفي تصوير مشاعرهم المتضاربة تجاههن من وصل وهجر وقرب وبعد ... وما أشبه ذلك من التجارب التي يدور حولها موضوع الغزل، وكان من المنتظر أن تتغير نظرة الشاعر الأندلسي للمرأة نتيجة للحضارة الجديدة والحياة الاجتماعية والطبيعة المؤثرة ويتغير تبعاً لذلك مفهومه لقيم الجمال للمرأة ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث وظل الشاعر الأندلسي مثل الشاعر المشرقي ينظر إلى المرأة نظرة حسية فتغزل فيها من هذا الجانب بعيداً عن خلجات النفس وما يضطرب فيها من مختلف المشاعر والأحاسيس ، ومن أبرز شعراء الغزل في الأندلس ابن زيدون، والأعمى التطيلي، وابن خفاجة ، وابن فرج الجياني.

.3الأوزان والقوافي:

إن التطور الذي لحق بالشعر العربي في العصر العباسي لم يكن محصوراً في بيئة المشرق فحسب بل امتد إلى المغرب والأندلس، فالأندلسيون لما كانوا يقلدون المشارقة في كل ما كانوا ينتجونه من أدب ، شعراً كان أو نثراً لم تغب عن إنتاجهم تلك المراحل من التطور التي كانت تسير فيها القصيدة العربية .. حيث وجدنا القصائد ذات الطابع التقليدي الخاص المتمثلة في المحافظة على شكل القصيدة، بما فيها من وزن وقافية، وما يتبع ذلك من خصائص في المقدمات والأغراض ..كذلك لا حظنا الخروج عن قواعد الخليل وابتداع ألوان جديدة من الشعر نتجت عن دخول القصيدة العربية وقتها مرحلة التوسع في تحديث شكل القصيدة، فالمزدوج والمسمطات التي عرفت في المشرق ما هي إلا مقدمات لنشأة فن الموشحات في الأندلس، هذا الفن أعطى القصيدة العربية شكلها الجديد والمتميز، بما قدم فيها من مصطلحات خاصة تتوافق مع الغناء السائد في ذلك العصر، وقد شجع

على نجاح هذا الشكل أن العرب الأندلسيين كانوا قد تأثروا أيضاً بالفنون التي وجدوها عند أهل الأندلس الأصليين ، وفي هذا الشكل تحرر الأندلسيون بعض الشيء من قيود الوزن إلى درجة أن بعض الموشحات لم تأت على الأوزان المعروفة عند الخليل بل سلكت سبيل التفعيلات فحسب، ومن ثم عزاها بعض النقاد إلى الأوزان المهملة، بل إنَّ بعضها لم يخضع إلى الأوزان المهملة وإنما تركها واتبع سبيل الإيقاعات التي تنسجم مع ما يوافق غناءهم .. هذا الأمر فتح المجال إلى أنْ ينتشر الموشح بين العامة فدخلته الألفاظ العامية والغريبة والأعجمية، وغير المعربة وصارت القصائد بعد ذلك تختلف عن الموشحات الأساسية، وبهذا سموا الفن الجديد بالزجل الذي انتشر في بيئة الأندلس وتميز فيه الأندلسيون عن غيرهم، وهذا اللون لم يلتزم الأوزان العربية القديمة ولا القافية ، وإنما خرج عليها بما يناسب لغة العامة وغناءهم.

الفصل الأول

الطبيعة في شعر الأندلس

1-الشعر الاندلسي:

1-1- أصل تسمية الأندلس:

تعددت الأقوال في أصل كلمة الأندلس لكن من المؤكد أنه "لم تعرف شبه جزيرة التي تشمل حاليا دولتي إسبانيا و البرتغال باسم الأندلس قبل أن تعرف المسلمين[1]" و هذا الاسم "كان مرتبطا بالدولة الإسلامية وحدها مهما كان امتدادها يتسع باتساعها و يضيق بانحسارها ، و لم يذهب هذا الاسم بنهاية الدولة الإسلامية في الأندلس , فإنه ما يزال مستعملا للمعنى القديم كلما ذكرت الأندلس أو ذكر علم من أعلامها أو فن من فنونها أو أثر من آثارها أو أي شيء له صلة بها[2]" و قد عرفت الأندلس في أقدم عصورها باسم إبيريا (Iberia) الذي أطلقه عليها الإغريق آنذاك كما أطلق عليها اسم إسبانيا (Ispania) "فلما دخلها الرومان صار الإسم Hispania , وهو – في رأي بعض المؤرخين الإسبان – مأخوذ من كلمة ذات أصل فينيقي[3]" و نرى أن المؤرخ دوزي (Dousi) يرجع اسم الأندلس "انطلق من كلمة "الفندال" التي يقصد بها شعب جرماني الأصل قد غزى إسبانيا الجنوبية في القرن الخامس الميلادي و استقر بها مدة من الزمان قبل عبوره شمال إفريقية و إليه تعود المبادرة في تسميتها "فندلوسيا" و من هذه اشتق العرب كلمة أندلس[4]".

أ- فتح بلاد الأندلس:

[1] الادب الاندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة ، د/احمد هيكل ، دار المعارف القاهرة ، 1985 ، ص 13

[2] في الادب الاندلسي ، د/محمد رضوان الداية ، دار الفكر دمشق ، 2000م ، ص 17-18

[3] نفس المصدر، ص 17

[4] محاضرات في الشعر الاندلسي في عصر الطوائف، الاستاذ محمد حمدان حجابي، ص4

فتحت بلاد الأندلس من أجل نشر الإسلام و توسيع رقعت البلاد الإسلامية فبعد أن "كانت جيوش المسلمين قد بسطت سلطانها على شمال افريقية, و استقرت بتلك العدوة التي لا يفصلها عن الأندلس إلا مضيق جبل طارق[5]" فجهز موسى بن نصير جيشا بقيادة طارق بن زياد , و ذلك في رجب سنة 92 هـ و أرسله فاتحا بلاد الأندلس و لم يلبث موسى بن نصير أن لحق بطارق بن زياد وبعدها تم فتح إسبانيا و قد "كانت إسبانيا الجميلة ذات الطبيعة الحلوة الجذابة قبل الفتح العربي منهكة القوى في حالة اضطراب و فوضى ترزخ تحت نير الغوط الغاصبين الشديد الوطأة و تتنازعها الثروات و الفتن و تتآكلها الأحزاب و الفرق, فتنفخ فيها سموم التفرقة و الخذلان , فيها شعبها يئن من عسف الأرستقراطية و يتألم من الاضطهاد و جور الطبقة الحاكمة[6]" و بدخول العرب إليها أشرقت شمس الحرية على الإسبان ,و خلصوهم من العبودية و استبداد الحكام الظالمين فلم يجد الفاتحون العرب صعوبة في فتح إسبانيا و ظلوا يتوغلون فيها و كانت لهم فيها دول و قد مرت عليهم أحداث كثيرة و طويلة , و كذا مر على البلاد أشكال من الحكم و الحكام و نجد أن مؤرخي الأدب الأندلسي يقسمون فترات الحكم عادة إلى عصور هي أولا :

اولا: عصر الولاة: تمتد الفترة المسماة بعصر الولاة من الفتح سنة 92هـ الى مجيء عبد الرحمان معاوية (الداخل) و اعتلائه سدّة الحكم في قرطبة سنة 138هـ و هي مدة قصيرة و لكنها حافلة بالأحداث الإيجابية و السلبية بالقياس إلى الوجود العربي الإسلامي في الأندلس[7]"و يسمى هذا

[5] الادب الاندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة ، د/احمد هيكل ، ص 24

[6] الطبيعة في الشعر الاندلسي، جميلة شحادة الخوري ، رسالة لنيل شهادة استاذ في العلوم ،كلية الآداب ، جامعة بيروت ، 1942, ص1

[7] في الادب الاندلسي ، محمد رضوان الداية، ص28

العصر عر الولاة لكون الأندلس كانت تحكم فيه بواسطة والي يعينه خليفة دمشق و أحيانا يعينه حاكم شمال افريقية.

ثانيا: العصر الأموي: و يبدأ بتأسيس عبد الرحمن الداخل لدولة بني أمية في الأندلس ، تلك الدولة التي تبلغ ذروة مجدها في عهد عبد الرحمن الناصر الذي يجعل منها خلافة عظيمة ، ينتهي هذا العصر بانتهاء ملك بني أمية هناك بعد سلسلة من الخلفاء العاجزين ، و اختيار زعماء قرطبة لنوع من الحكم الجمهوري سنة 422هـ - 1031م.

ثالثا: عصر ملوك الطوائف: و يبدأ بسقوط الدولة الأموية و قيام عدة ممالك مستقلة، انقسمت الأندلس معها طوائف و على كل طائفة مليك و ينتهي هذا العصر باستيلاء المرابطين على الأندلس بقيادة يوسف بن ناشفين سنة 493هـ-1091م.

رابعا: عصر المرابطين: ويبدأ باستيلاء ابن ناشفين وجيوشه الإفريقية على الأندلس وينتهي بحلول الموحدين محل هؤلاء المرابطين في حكم إسبانيا الإسلامية سنة 541هـ - 1146م.

خامسا: عصر الموحدين: و يبدأ بحكم هؤلاء الإفريقيين للأندلس و ينتهي بسقوط دولتهم وإنتزاع المسيحيين الإسبان للكثرة الغالبة من الأقاليم التي كانت في أيدي المسلمين و حصر الدولة الإسلامية الأندلسية في جزء جنوبي صغير هو مملكة غرناطة و ذلك نحو سنة 668هـ-1269م.

سادسا: العصر الغرناطي: و يبدأ بتأسيس مملكة غرناطة على يد ابن الأحمر و ينتهي بتسليم هذه المدينة الإسلامية الى الإسبان سنة 898هـ-1492م[8]".

1-2- الشعر الأندلسي:

بعد دخول العرب الفاتحين إلى الأندلس و توطينهم حيث جاؤوا بشعرهم و أدبهم و لغتهم معهم و بذلك انبثق الشعر الأندلسي من الشعر المشرقي و نرى أنه قد "طرق الشعر الأندلسي في موضوعاته جميع الأبواب التي طرقها شعر المشارقة في بغداد و الشام فاشتهر في المدح ابن هاني و ابن عبد ربه و أحمد بن شهيد و ابن زيدون و ابن حمديس و ابن حداد و ابن الخطاب و ابن زمرك.

و في الرثاء، ابن اللبان ، ابن عبدون و أبوا البقاء الرندي و في التنكي و ذم الدهر، المعتمد بن عباد و ابن اللبان.

و في الهجاء أبا بكر المخزومي الأعمى شاعر غرناطة و ولارة بنت المستكفي، و إن كان هذا الفن ضعيفا في الأندلس و في الفخر و الحماسة ابن رهبون و نفر قليل غيره لا يعتدّ بهم لأنهم لم يكونوا مشهورين و في الحكم ابن هاني و ابن زيدون و ابن رهبون، و في الوصف اكثر الشعراء الذين تقدم ذكرهم و قد أجاد في هذا اللون الشعري في أنهم فاقوا المشارقة في كثير منه، و في الغزل ابو مارين شهيد و الرمادي و الرقاء و ابن الحداء و ابن خفاجة و ابن زيدون . و في الطبيعة و العمران نبع

[8] الادب الاندلسي من الخلاف الى السقوط ، د/احمد هيكل، ص28-29

شعراء كثيرون[9]". و بذلك نرى أن الأندلسيين لم يتناولوا مواضيع جديدة لم يطرقها قبلهم المشارقة إلا في الموشحات و الأزجال و قد "قال الأندلسيون الشعر في مواضيع شتى و نظموه في أبواب مختلفة كما تبين و لكن اذا شئت أن تلمس إبداعهم و براعة وصفهم و دقة تصويرهم و رقت إحساسهم و شدة افتتانهم و حلاوة معانيهم و نحب خيالهم فأسمعهم يصفون طيورها و أشجارها ، جداولها و أنهارها وأقمارها، غيومها و أمطارها، قصورها و حدائقها بركها و دوافقها بصورها و تماثيلها ، نقوشها و ما إلى ذلك من أسباب عمرانها[10]"

1-3- اتجاهات الشعر الاندلسي:

يرى دارسوا الأدب الأندلسي ان هناك ثلاثة اتجاهات في الشعر الاندلسي : الاتجاه المحافظ، الاتجاه المحدث الاتجاه المحافظ الجديد.

اولا: الاتجاه المحافظ: حاكى أصحاب هذا الاتجاه الشعر المشرق في ألفاظه و عباراته و أسلوبه البدوي "وكان يهتم أكثر ما يهتم بالموضوعات التقليدية ، من فخر و حماسة و ما الى ذلك ثم في أنه كان يمير على منهج الاقدمين في بناء القصيدة و في تجميع صورها غالبا من عالم البادية و تأليف أسلوبها في الاعم من لغة تستوحي الذاكرة و التراث ، أكثر مما تستوحي العصر و الواقع[11]" و من أمثلة ذلك.

[9] الطبيعة في الشعر الاندلسي، جميلة شحادة الخوري، ص16

[10] الطبيعة في الشعر الاندلسي، جميلة شحادة الخوري، ص 18

[11] الادب الاندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة، د/احمد هيكل، ص81

ثانيا: الاتجاه المحدث: "و نعني به هذا الاتجاه الذي سار فيه بالمشرق ابو نواس و مسلم بن الوليد و ابو العتاهية و امثاله من المجددين و الذي نزعمه ابو نواس حيث حار على الاتجاه التقليدي و ندد بطريقته، و راح بطرق اغراضا جديدة ، بمنهج جديد و اسلوب محدث و كانت هذه الحركة التي تزعمها ابو نواس معاصرة لتلك الفترة التي تسوق عنها الحديث و لما كانت الاندلس دائمة الحلة بالمشرق دائمة الاخذ عنه، قد اخذت هذا الاتجاه الجديد في الشعر حيث نقل اليها في عهد الامير عبد الرحمن الاوسط و ما لبث ان شاع بين ادباء الاندلس[12]". و "نجد إن الاتجاه المحدث قد اهتم بمجموعة من الاغراض التي لم تكن شائعة قبلا من الغزل الشاذ و الخمريات و المجونيات و الزهديات و كذلك نجد اسلوبه ان اسلوب يميل الى شيء من التفضيل يتجه احيانا الى القصر تشبع فيه روح الدعابة و السخرية و التحرر اذا كان الموضوع لاهيا ، كما تشبع فيه روح المرارة و الكآبة و التزمت اذا كان جادا. ثم هو غالبا اسلوب ترسم صورة من عناصر حضارية و تحلق اخيلة في آفاق غير آفاق البادية و تؤلف لغة من الفاظ بسيطة واضحة حسنة الايقاع، و تميل موسيقاه الى البحور القصير و القوافي الرقيقة[13]".

ثالثا: الاتجاه المحافظ الجديد:

و يقصد به هذا الاتجاه الشعري الذي قد ظهر في الشرق كرد فعل للاتجاه المحدث الذي تزعمه ابو نواس ، و الذي خرج بالشعر العربي عن كثير من تقاليده فجاء هذا الاتجاه المحافظ الجديد. ليعيد

[12] الادب الاندلسي من الخلافة الى السقوط، احمد هيكل ، ص 127

[13] الادب الاندلسي من الخلافة الى السقوط، احمد هيكل ، ص 130

الشعر العربي الى طبيعته العربية و ذلك بالاقتراب من التقاليد الشعرية المأثورة و التخفيف من تلك الثورة المتمردة التي لجأ اليها المحدثون كل ذلك دون وقوف او جمود عندما كان عليه الشعر القديم و بساطة و سذاجة و بداوة ، بل مع سير و تطور يفيدان الشعر مما وصلت اليه العقلية العربية و من رقي و مما بلغته الثقافة العربية من نهوض و مما نعم به المجتمع العربي من حضارة ، و من هنا جاء هذا الاتجاه محافظا من جانبه و مجددا من جانب، فهو محافظ في منهج القصيدة و لغتها و موسيقاها، ثم في روحها و اخلاقياتها الى حد كبير و هو مجدد في معاني الشعر و صوره ثم في اسلوبه و جمالياته الى درجة بالغة[14]".

2-شعـر الطبيـــــــــعة:

- الأندلس فردوس ثر الجمال ، اكتسبت جوا عبقا ، و ظلالا وارفة، و جبالا شامخة، و انهارا جارية، و مروجا مخضوضرة . شحذت قرائح الشعراء و اسرت قلوبهم، فتغنوا بمناظرها الخلابة و تعلقوا بأجوائها العطرة تعلقهم بالمرأة ، فتمتنت العلاقة بين المنظر الطبيعي و بين المرأة حتى بات من الصعب، ضمن المقطعة الشعرية الواحدة ، التمييز بين موضوع الطبيعة و الغزل الانثوي[15].

و قد ظلت طبيعة الاندلس الفاتنة تتصدى لعيون الشعراء و تبعث فيهم وصال الحبيب و انبساط النفس حتى وصلت قصيدتها، في كل العصور الاندلسية الى مستوى عال من النضوج و ذلك بسبب ميل الشعراء الى اعطاء المنظر الطبيعي حقه الكامل ، و بسبب شدة عنايتهم بالتفاصيل و الجزئيات

[14] نفس المصدر، ص 194-195

[15] يوسف طويل ، مدخل الى الادب الاندلسي ، دار الفكر اللبناني ، بيروت ، ط 1 1991 ، ص81

دون ان يتركوا شاردة و لا واردة الا ووصفوها ، الا ان المقطعات المصفية هي التي ظلت سائدة ، لان المنظر الطبيعي لم يستقل عن غيره من الاغراض الشعرية الاخرى ، بل ظل في اغلب الاحيان يمزج بها، و هكذا تغلغلت الطبيعة في موضوعات كثيرة من شعر الاندلس و امتزجت بها امتزاجا كبيرا حتى بات الغزال و الخمر و شعر الطبيعة اغراضا ثلاثة متداخلة فيما بينها تداخلا لا حدود له و كان الخمر لا تصلح للشرب الا في احضان الطبيعة على سماع هديل الحمام و تغريد الطيور ، و كان لقاءات الحبيبين لا تتم الا على ضفت نهر و في روض مزهر حيث يتداعبان و يتسامران تحت ضوء القمر او في ظل سرحة و ارفة الاغصان[16].

- من الشعر الأندلسي الذائع في وصف ارض الأندلس ، و طبعتها و نظر اهلها اليها ، و عيشهم في ظلالها ، قول محمد بن سفر احد شعراء القرن السادس الهجري[17]:

في اَرْض الأَنْدَلُسِ تَلْتَذُ نُعْمَاءِ وَ لَا تُفَارِقُ فِيْهَا اَلْقَلْبُ سَرَّاءُ

وَ كَيْفَ لَا تُبْهِجُ اَلأَبْصَارُ رُؤْيَتِهاَ وَ كُلُّ رَوْضٍ بِهاَ فِي الوَشِيْ صَنْعَاءُ

أَنْهَارُهَا فِضَةٍ وَ الِمسْكُ تُرْبَتِهَا وَ الخِزُ رَوْضَتِهَا وَ الْدارُ حَصْبَاءُ

- شعر الطبيعة هو شعر رقيق ينضج بمحبة الأندلس و الانس بما فيها من جمال الطبيعة و يستطرد الى ذكر محاسنها ن من وراء نظرة الاعجاب بالأرض و التمسك بالوطن، و الف كل ما فيها من بر و بحر و ارض و سماء، جبال و انهار، المبالغة في وصف المحاسن و الاستغراق في مجالي الجمال.

[16] يوسف طويل ، نفس المرجع، ص81.

[17] محمد رضوان الداية، في الأدب الاندلسي ، دار الفكر المعاصر ، بيروت لبنان ، ط1 ، 2000م ، ص112-113

و نجد مثل هذه النظرة المفعمة بالإعجاب بالطبيعة الأندلسية في الاشعار كثيرة تشمل عصور الادب الأندلسي من بداياته الى خواتيمه ، و يندر ان يخلو ديوان الشعر أندلسي من وقفات عند الطبيعة و استحسانها و العيش في ظلالها و وصف ما يروق الشاعر منها، في انعال و محبة و ارتباط.

بل ان الشعر الأندلسي سجل مزية و خصوصية في هذا الغرض، و لفت انظار الدارسين الى التجديد فيه كالذي نجده عند اتباع المذهب الخفاجي .

و هكذا اطبع الأندلسي على حب الطبيعة التي خصها الإله بالجمال حتى اصبحت تشكل جزءا هاما من حياته اليومية، و اصبح تعلقه بارضه كبيرا، و لاسيما في فترة الموحدين، لأنها اصبحت مهددة في كل لحظة بالسقوط بين نصارى الشمال. فهل الاندلس يقول الحجازي في "المسهب" اشعر الناس في وصف الاشجار و الانهار و الاطيار و الكؤوس، لا ينازعهم احد في هذا الشأن، و هم السابقون في هذا المضمار اذا هب نسيم، و صفق للماء خرير ، و رقت العشية و خلعت السحب ابرادها الفضية و الذهبية، او تبسم عن شعار ثغر نهر، او ترقرق بطل جفن زهر[18] .

و لقد دارت موضوعات الطبيعة حول وصف الروض و الزهور ، و الاشجار و ثمارها ، و المياه الجارية، كما دارت حول وصف الانهار و الجبال و المدن و القصور . فاذا وصفوا روضا اشتهينا رؤية وروده و ازهاره و هي تفوح بأريجها و عطرها، و شاقنا فيه تغريد الحمام الى سماعه، و قد وفق ابن عبد ربه في مناجاة الحمام في احد رياض قرطبة حين شاركها احزانها، و حين البس النسيب ثوبا سداه المنظر الطبيعي:

[18] محمد رضوان الداية، في الادب الاندلسي ، دار الفكر المعاصر ، بيروت لبنان ، ط1 ، 2000م ، ص112-113

صَحَا القَلّبُ الاّ خَطْرَةٍ تَبْعَثُ اَلأَسَى لهَا زُفْرَةُ مُوْصُولةٍ بِحَنِينِ

وَ ان ارْتِيَاحِي مِنْ بُكَاءِ حَمَامَةٌ كَذِي سِجْنِ دَاوَيْتَهُ بِشُجُونِ

كَان حَمَامُ الَأيْكِ حِينَ تَجَاوَبْتَ حَزِينْ بَكَى مَنْ رَحْمَةِ لحَزِينِ

– و كان ابن خفاجة اوحد الناس في وصف الرياض وما فيها من ازهار و رياحين و اشجار، فهو سابق اقرانه في هذا المضمار و حائز فيه قصب الرهان . يقول في وصف روض عند العشي، فيه شجرة تلاعبها الريح ، و يكسرها الغمام ، و يثنيها الحمام بغنائه:

سُقْيَا اليَوْمِ قَدْ انْحَتْ بِسَرْحَةٍ رَيَا تُلَاعِبُهَا اَلْرِيَاحُ فتَلْعَبُ

سُكْرَىَ يُغنَيهَا الحَمَامُ فتَنْثَنِي طَرِباً ويُسْقِيهَا الغَمَامُ فتَشْرَبُ

وَ الرّوْضِ وَجْهُ الَظِلْ فَرْ عُ اسْوَدُ المِاءِ ثُغَرّ أَشْنَبُ

فِي حيْثُ أطْرَبَنَا الحَمَامُ عَشِيةٍ فَشّدَا يُغنَينِاَ الحَمَامُ الُمطْرَبُ

– و هنا يوفق الشاعر ايما توفيق في جعل الشحرة انسانة تلعب مع الريح و تنثني سكرا على سماع غناء الاطيار و تتعاطى خمرة المطر المتساقط، ناهيك عن تشبيه الروضة بشابة حسناء موردة الخدين، شعرها المتدلي على كتفيها ظل الشجرة الظليل، و بياض اسنانها صباء مياه الجدول المنسابة بين جنبيه[19]. فرغم ازدحام التشبيهات في البيت الثالث، فقد استطاع ابن خفاجة ان يشارك بعواطف

[19] محمد رضوان الداية، في الادب الاندلسي ، دار الفكر المعاصر ، بيروت لبنان ، ط1 ، 2000م ، ص112-113

مسرة الروض و يبادله الشعور باعثا فيه الحياة . فاخلص ابن خفاجة قطعا و قصائد لوصفها استعرافا لجزئياتها[20]، و دخولا في تفصيلاتها، كما مزج وصف الطبيعة بغرض الغزل و بوصف المجالس ايضا. و له قطعة يمزج فيها الغزل بالطبيعة الاندلسية، يقول فيها:

هَذَا اَلسانُ الدَّمْعُ يُمْلِي الغَرَامُ فِي صَفْحَةٍ اثَر فِيهَا الغَرامُ

عَهْدُ لهِنْدُ لَمْ يَكَنْ بالَذيِ تَقْدَحُ فيِهِ نَفَتاتُ اَلْمُلاّمُ

ياَ نَهْرُ نشَيلُ الاّ دعْوةٍ لِذَلَك العَهْدُ وَ لَوْ فِي المنَامُ

ماَ كَانَ الّا بَارِقًا خَاطِفًا ما زلَتْ مُذْ فَارَقَتْنِي فِي ظَّلاَمُ

الله مِنْهُ يوَمُ لمْ انْسَهُ وَذِكْرُ مَا اوْلاَهُ أَوْلَى يَمَامُ

– فالطبيعة الجميلة في غرناطة ما تزال في باله، و ملامح الجمال متداخلة بين البيئة التي يخترقها هذا النهر الفياض، و بين هند التي حسنت وفاقت ، و هي في جمالها كانها غصن من اغصان اشجار ذلك المكان الجميل.

و استمر شعراء الاندلس الباقية على صلة بطبيعة بلادهم و على الاستضلال بضلالها الجميلة و رفع الاشادة بتلك البلاد بما فيها من الخير و الجمال.

[20] نفس المرجع ، ص112-113

و لا يخلو ديوان شاعر من شعراء عصر غرناطة من وقفات وصف الطبيعة كالذي نجده في شعر ابن الحياب ، و لسان الدين، و ابن خاتمة الانصاري، و ابن زمرك، و ابن فركون ، و غيهم

2-1- اتجاهات الاندلسيين في شعر الطبيعة:

2-1-1- التغني بجمال طبيعة بلادهم:

- هو اول اتجاه يطالعنا في ذلك هو تغني شعراء الاندلس بجمال الطبيعة في مدنهم ، الامر اللذي يدل على شدة تعلقهم و اعتزازهم بها .

- و منهم من امتد حبه فشمل الاندلس كلها ، فغناها ومجدها، و منهم من وقف حبه و تمجيده على طبيعة مدينته ، التي شب و درج على ارضها ، و عاش بين اكنافها .

✓ و من امثلت النوع الاول قول ابن يفر المريني، الذي تغنى فيه بجمال طبيعة الاندلس:

فِي ارَضُ أنْدَلِسُ تتَلَذَذُ نَعْمَاءُ لاَ يُفَارِقُ فِيهَا الَقَلّبُ سَرَاءُ

وَ ليْسَ فِي غَيْرِهَا بالْعَيْشُ مُنْتَفَعُ لَا تَقُومُ بحِقِ الأُسَسُ صَهْبَاءُ

✓ و من النوع الثاني الذي تغنى فيه الشعراء بجمال مدنهم نجد فيضا غزيرا من الشعر، منه على سبيل المثال قول ابن برد الاصغر في وصف رصافة قرطبة التي بناها عبد الرحمن الداخل:

سقَى جَوْفِ الرَصَافَةِ مُسْتَهَلُ تُؤَلِفُ شَمْلِهِ ايْدي الَرِيَاحِ

مَحَلُ مَا مَشِيَتْ اِلِيْهِ الَّا مَشَى فِي ابْتِهاَجِي وَ انْشِرَاحِي

كَانَ تَرَنمُّ الاطْيَارُ فِيهِ أَغاَنٍ فَوْقَ أَوْتَارِ فَصَاحِ

كَانَ تَشْنِي الَاشْجَارُ فيهِ عُذاراً قدْ شَرَبْنَّ سُلاَفُ راَحِ

كَانَ الجَدْوَلِ المنسابُ نَصِلُ سَقِيلُ المِتْنُ هَزَ إلَى كِفَاحِ

كَانَ رِياضَهِ ابْرَادِ وشِي تَعْطِفُ فَوْقَ اعْطَافُ مِلاَحِ[21]

2-1-2- وصف مجالي طبيعة الاندلس:

و ثاني اتجاه في شعر الطبيعة الاندلسي يتمثل في وصف مجالي الطبيعة في الارض و السماء و لهم في هذا الاتجاه شعر كثير يعتمد اكثر ما يعتمد في التصوير على التشبيه و الاستعارة و يخيل لمن يطلع على شعرهم في هذا التجاه انهم لم يغادروا شيئا مما وقع عله بصرهم في ارضهم و سماءهم ، الا وقفو امامه و صوروه في شعرهم تصويرا يريك ظاهره اكثر من باطنه. فمن مجالي الطبيعة التي شدتهم اليها و تانقو في تصويرها (الرياضي) ، و من ذلك قول الوزير ابي جعفر بن سعدون في وصف روض.

وَ رَوْضِ كَساَهُ الَظِلُ وَ شَئاَ مُجَدِدَا فَاضْحَى مُقِيماَ للنَاقُوسِ وَ مَقْعَدَا

اِذاَ صَافَحَتْهُ الرِيْحُ خَلَتْ غُصُونَهُ رَوَاقِصُ فِي خَضْرِ مِنْ القَضَبِ مَيِدَا

اِذاَ ماَ انْسِكَابُ المِاءُ عَايَنَتْ خَلَّتْهُ وَ قَدْ كَسرَتْهُ راَحَةُ الرِيحُ مُبرَّدَا

و إِنْ سَكَنْتُ عَنْهُ حَسِبْتُ صَفَاءُهُ حَساَءُ صَافِي المِتْنِ جُرَّدَ

وغَنَتْ بِه وَرَقُ الحَمَائِمُ بَيْنَنَا غنَاءُ يُنْسِيكَ الغَرِيُضُ وَ مَعْبَدَا[22]

[21] عبد العزيز عنيق ، الادب العربي في الاندلس، دار النهضة العربية للطباعة و النشر ، ط2، 1976م ، ص295-298

[22] عبد العزيز عنيق ، الادب العربي في الاندلس، دار النهضة العربية للطباعة و النشر ، ط2، 1976م ، ص 298-308

و من مجالي الطبيعة الاخرى التي شغف الشعراء الاندلس بتصويرها، الريح و البرق و السحاب و المطر و الاوراق و النواعير و البرك . و مثال ذلك في وصف الرعد و البرق يقول مروان ابن عبد الرحمن، الملقب بالطليق:

فَكَانَ الغَمامُ صَبْ عَمِيدَ ان بالرّعدُ حُرْقَةِ وَ اشْتَكىَ

وَ كَانَ البَرُوقُ نارُ جُوَاهُ وَ الحِيَادُ مَعهُ يَسيِلُ بُكَاءُ

– و لم يفت شعراء الاندلس و هم يجولون في بساتين بلادهم و حدائقها و هم يعقدون فيها اكثر مجالس انسهم و طربهم فيها ان يصوروا فيها ثمارها و فاكهتها الحلوة التي تطر عليهم من فوق اشجارها بشتى الوانها واشكالها و روائحها الطيبة و اي شاعر يرى ما تخلعه اشجار مثمرة على الحدائق و البساتين من روعة منظر ، و ما تبعثه في النفوس من هرب و نشوة ، فكيف تتحرك شاعريا ؟ و مثال ذلك قول ابي الحجاج سويف المالقي في وصف تين مالقة و كان يضرب المثل في حسنه و يجلب حتى للهند و الصين

مَالقَهُ حُييْتُ يَا تِينَهَا الْفُلّكِ مِنْ اَجْلِكِ يَأتِينَهَا

نَهَى طَبِي عنَه فِي عَلي مَا لَطِبِي عَنْ حَياتِي نَهى؟

2-1-3- وصف مجالس الاندلس[23]:

و ثالث اتجاه في شعر الطبيعة فعند الاندلسيين يتجلى في وصف شعرائهم في مجالس الاندلس و الطرب التي كانوا يعقدونها او يدعون اليها . و ما اكثر ما قالوا و ابدعوا في وصف هذه المجالس

[23] عبد العزيز عتيق ، الادب العربي في الاندلس، دار النهضة العربية للطباعة و النشر ، ط2، 1976م ، ص 309-312

و الناحية التاريخية بدأت مجالس الاندلس كظاهرة اجتماعية اخريات الدولة الامويين بالاندلس ثم اخذت هذه الظاهرة في الشيوع الانتشار في عصر ملوك الطوائف و ما تلاه من عصور ، و شارك فيها العامة و الخاصة على سواء و من هذه المجالس ما كان يعقد في المساء فيدوم طوال الليل، و ما كان يعقد في الصباح و يدوم طول النهار، و كلا النوعين من مجالس الانس كان يشترك في وصف امور بعينها، ثم ينفرد كلاهما بعد ذلك بامور كانا يشتركان في وصف الخمر و سقاتها و ادواتها، من كؤوس و اباريق، ثم تنفرد مجالس الليل في مجالي السماء من كواكب و نجوم، بضيائها و لآلئها.

كما تنفرد مجاس النهار بوصف مجال الارض ممثلة في رياضها و اهارها و انهارها و جداولها ، و غير ذلك من مباهج الارض التي تقع تحت ابصارهم ، فينفعلون بها.

و من هذه المجالس مجالس الملوك و الامراء و كانت تعقد عادت في قصورهم ، او في زوارق على الانهار تحف بها السفن ، و هذه و تلك كان يدعى اليها اعيان الوزراء و النبهاء الشعراء ، و اهل الموسيقى و الغناء و بذلك يتعاون الشعر و الفن و الشراب في اضفاء جو من الانس و الطرب و البهجة على هذه المجالس.

- اما مجالس الانس العامة ، و هي بطبيعة الحال اكثر حيرة و انطلاقا ، فكانت تعقد في الرياض و على مجاري المياه و شطآن الجداول و الانهار المحفوفة بالأشجار و الازهار ، و كما قال احدهم : كانوا يعقدونها ايضا في حدائق تهدي الارج و العزف، و منازه تبهج النفس و تمتع الطرف.

✓ **سمات شعر مجالس الأندلس:**

و قد أثر على شعراء الأندلس شعر كثير في وصف مجالس الشراب و الأنس ، و لهذا الشعر سيمات خاصة اهمها :

- غلبت الارتجال عليه، لأنه يأتي للشعراء عفو الخاطر و وليد الساعة
- قلت القصائد الطوال فيه، و كثرة المقطوعات
- غلبت عنصر الخيال عليه
- استخدام الالفاظ التي تتظافر بما لها من خصائص معينة ، على بناء الصور الشعرية التي تروق لحاسة او اكثر من الحواس.
- تنوع صوره الشعرية بتنوع العناصر التي تتركب منها .

و مثال ذلك قول ابي بكر محمد ابن عبد الملك ابن زهر :

وَ مُوسَدِيْنَ علَى الَاكُفِ خُدُودِهِمْ قدْ غَالَهُمْ نَوْمِ الصَبَاح وَ غَالَنِي

مَا زلتُ اسْقِيهِمْ وَ اَشْرِبْ فَضّلِهِمْ حَتى سَكَتْ نَالَهُمْ مَا نَالَنِي

وَ الخَمْرِ تَعرفُ كَيْفَ تَأْخُذ حَقَهَا انِّي أَمِلْتُ انَاءِهَا فَأمَالنَي

2-1-4- وصف قصور الاندلس[24]:

و كما تغنى الشعراء بطبيعة الاندلس الحية و الصامتة تراهم قد تغنوا كذلك بطبيعتها الصناعية ، ممثلة في وصف قصور الامراء و الخلفاء و الملوك ، تلك الاتي اسرفوا في تشييدها على غرار قصور الامويين

[24] عبد العزيز عتيق ، الادب العربي في الاندلس، دار النهضة العربية للطباعة و النشر ، ط2، 1976م ، ص 312-318

و العباسيين في المشرق و اتخذوها منتجات للاستجمام و الراحة ، و للاستغراق في حياة اللهو و الترف و النعيم ، بعيدا عن مقر الحكم بالحاضرة ، و قد كانت حياة هذه القصور موقوته بحياة بناتها تبقى ما بقوا و تذهب بالانتهاب و السلب بذهابهم !

و هذه القصور الشامخة و الباذخة التي ابدعت يد فن في هندستها و زخرفتها من الخارج و الداخل، و تأنقت في انشاء حدائقها و كل ما يتعلق بها ، هي التي كان شعراء الاندلس يتنافسون في وصفها و تصويرها ايام عزها، و في رثائها و تفجع عليها بعد خرابها و قد سلك الشعراء في وصفها طرائق شتى نلخصها في ما يلي :

- الوقوف في الوصف عند حث القصر وحده، او مزج وصفه بمدح صاحبه و ذلك قول ابن عمار:

كُلُ قَصْرٍ بَعْدُ الدِمَشْقُ يُذمْ فيِه طَامُ الجَنَى وَ فَاحَ الْمُشَمْ

مَنْظَر رَائِعُ ، وَ ماَءُ مُنِيرُ وَ ثَرَى عَاطِرَ، وَ قَصْر اَشَمْ

بَثُ فِيهِ وَ اللَّيْلُ وَ الْفَجْر عِنْدي عَنْبَر اشْهَبُ، وَ مِسْكُ اَحَمْ

- و من طرائقهم ايضا في وصف القصور ، و ذلك بتصوير جوانبها الفتية تصويرا يذهب الخيال فيه مذاهب شتى. هذا مع استمرار امتزاج هذا الوصف بالمدح.

و من امثلت ذلك قول ابن حمديس ايضا في وصف دار بناها المنصور ابن اعلى الناس ببجاية، و قد بالغ في الوصف:

قَصْرُ لَوْ أنَّكَ قَدْ كَحِلَتْ بِنُورِهِ اَعْمَى لَعادَ إلَى المقَام بَصِيراَ

وَ اشْتَقُ مِنْ مَعْنىَ الحَياةُ نَسِيمَهُ فَيَكَادُ يَحَدثُ للعِظَامُ نُشْوراَ

اعْيتُ مُصَانِعهِ علَى الفَرَسِ الأَلِى رَفَعُوا البِنَاءُ وَ احْكِمُوا التَدْبِيراَ

وَ مَصِنْتُ علَى الرُّومُ الدُهُور وَ مَا بَنَوُ لِمُلوُكِهِمْ شُبْهاً لَهُ وَ نَظِيرَاَ

اَذْكَرْتَنَا الفَرْدَوْسِ حِيَن ارَيْتَناَ غَرفَا رفَعْتَ بِنَاءَهَا وَ قُصُوَراَ

– و من طرائقهم كذلك في هذا الاتجاه التفجع على القصور و الديار التي ماتت بموت اصحابها او برحيلهم عنها . و للأندلسيين في ذلك شعر كثير يمتزج الاسى فيه بالغيرة. ولعله كان المرحلة الاولى لما قالوه فيما بعد في رثاء المدن و الممالك ، مما ستكون لنا معه وقفة.

و منه قول ابي اسحاق بن خفاجة الاندلسي:

وَ مُرْتَبِعْ حَطَطْتَ الرَّحْلُ مِنْه بِحِيثُ الظِّل وَ المِاءُ القِرَاحُ

تُخْرِمُ حَسَنُ مَنْظَرَهُ مَليْكُ تُحْزِمُ مُلْكَهُ القَدَرُ الُمتَاحُ

فَجَرِبَهُ مَاءُ حُبٌ وَ لَهٌ بُكَاءُ عَليْهُ، وَ شَدُّ وَ طَائِرَهُ نُوَاحَا.

و بذلك فان شعراء الاندلس غادرو شيئا من مجالي طبيعة بلادهم الحية الصامتة و الصناعية، الا وقفوا امامه و رسموا امواله لوحات تمتع العين بألوانها الناضرة المبهجة.

و لعل أهم ما يؤخذ عليهم في تصويرهم للطبيعة انه تصوير لظاهرها دون باطنها، او بمعنى آخر انهم وقفوا من الطبيعة موقف المصور الذي التقط لها صورا من بعد ، دون ان يدخل في صميمها ، و يطل علينا من خلالها بروحه و قلبه و عواطفه، اللهم إلا في القليل من النماذج التي مرت بها كوصف ابن خفاجة للجبل، او كوصف أبي بكر محمد بن عبد الملك بن زهر لشيخوخته حين غلب عليه الشيب.

الفصل الثاني

الرمز في الشعر الأندلسي

1- تعريف الرّمـــــــز:

أ- **لغـــة**: جاء في لسان العرب لا بن منظور الرمز هو (تصويب خفي بالسان ويكون بتحريك الشفتين بكلام غير مفهوم بالفظ من غير ابانة صوت وانما هي اشارة بالشفتين , وقبل الرمز في اللغة هو كل ما أشارت اليه مما يسببان بالفظ أي اشرت اله بيد أ و بعين)[1].

ويرى القيرواني "ان أصل الرمز الكلام الخفي الذي لا يكاد يفهم ثم استكمل فصار اشارة"[2]

-لقد ذهبت معظم المعاجم العربية الى أن الرمز هو اخفاء وحجب معنى محدد دون أن يدل عليه السياق الظاهر للكلام.

و أوردت أغلبية المعاجم بأن الرمز يعني الإشارة والإيماء بالشفتين والعين أو الحاجبين أو اليد[3]

- أما القرآن فقد جاء في قصة سيدنا زكريا – عليه السلام في قوله تعالى "قال رب اجعل لي آية . قال آيتيك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام ألا رامزا واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشي والإبكار"[4]

وقد ورد في تفسير قوله تعالى: "الا رمزا أي اشارة لا تستطيع النطق فقط" [5]

---

[1] ابن منظور, لسان العرب, مج 3 دار الصادر, بيروت د. ط 1997 .ص 199

[2] ابن رشيق القيرواني , العمدة في محاس الشعر آية ونقده تحقيق محي الدين عبد الحميد , دار الجبل , بيروت , ط 19915, ص 300

[3] محمد بعيش , اشهرية الخطاب الصوفي الرمز الخمري عند ابن فارض نموذج منشورات كلية الآداب العلوم الأنسانية , الرباط ,د,ط 203, ص 102

[4] سورة آ ل عمران الآية 41

[5] ابن الكثير , تفسير القرآن الكريم , دارهم للطباعة والنشر القاهرة د,ط, ,ص 262.

-ومما ورد في تأويل الرمز في الآية الكريمة أن سيدنا زكريا عليه السلام عوقب حين سأل الله عز وجل آية أي علامة على هذه البشارة ب"يحي" عليه السلام انما هي فعلا بشارة من الله جل في علاه رغم مشافهة الملائكة اياه بذلك فعوقب فأخذ عليه لسانه فجعل لا يقدر على الكلام الا رمزا او إيماء أو إشارة[1]

-ومجمل القول ان الرمز معنى الخفاء وعدم الوضوح أو الاشارة وهي كل ما يحل محل شيء آخر في الدلالة عله بطريقة المطابقة التامة , وانما بالإيحاء أو وجود علاقة غرضية أو متعارف عليها[2]

ب- اصـــطلاحا: لقد تعددت تعريفات الرمز و مفاهيمه واختلفت باختلاف وجهات النظر وتعدد الآراء فهناك من يراه من الزاوية المجازية , وهم علماء العرب القدامى وهنالك من ينظر اليه من وجهة نظر شعرية جمالية وهم النقاد والأدباء المحدثون.

ولعل أبرز ما ورد في تعريفات العرب القدامي ما جاء على لسان "ابن وهب" حين يعرف الرمز بأنه: "ما أخفي من الكلام , وأصله الصوت الخفي الذي لا يفهمه , وانما يستعمل المتكلم الرمز فيما يريد طيه عن كافة الناس والأضفاء به الى بعضهم فيجعل للكلمة أو الحرف اسما من أسماء الطيور أو الوحوش أو سائر الأجناس أو حرفا من المعجم ويطلع على ذلك الموضوع من يريد افهامه رمزه , فيكون ذلك قولا مفهوما بينهما , مرموزا على غيرهما[3]"

---

[1] ينظر المحمدي بركات , الرمز التاريخي ودلالة في الشعر عز الدين مههوبي , رسالة الماجستير جامعة العقيد الحاج لخضر , باتنة ,د,ط2009,ص7

[2] مجدي وهبه , معظم مصطلحات الآدب ,مكتبة لبنان د ,ط 1974 ص 552.

[3] محمد يعيش شعرية الخطاب الصوفي , ص 122 .

وهذا قدامى بن جعفر يقول: عن الرمز " انه اصطلاح بين المتكلم وبعض الناس[1]"

آما ابن رشيق القيرواني: "فينظر اليه على أنه نوع من انواع الإشارة وبعدها مرادفا للإشارة الحسية ،وأنه استعمل حتى صار مثلها أو نوع منها[2]"

آما السكاكي: "فقد صنف الرمز كنوع من أنواع الكناية و معتبرا أن الكناية تتنوع الى تعريض وتلويح ورمز وايماء واشارة[3]"

2- أنواع الرمـــــز:

يعتبر الشعراء الرمز وسيلة احائيه من ابرز وسائل التصوير وبخاصة في الشعر المعاصر , فتنوعت بذلك الرموز واختلفت باختلاف أنواعها حيث غلبها الشاعر في تجاربه الشعرية للانتقال من بلاغة الوضوح الى بلاغة الغموض في سعيه الدائم وراء اكتشاف وسائل تعبيرية لغوية بها لغته الشعرية ومنها:[4]

[1] درويش الجندي , الرمزية في الأداب العربي , دار نهضة مصر للطباعة والنشر القاهرة , ط2 ,د, ت,ص 44

[2] ابن رشيق القيرواني , العمدة في محاسن الشعر ,ص 304

[3] محمد بعيش شعرية الخطاب الصوفي ص 123.

[4] علي جعفر في حداثة النص الشعري ، دراسة نقدية ، دار الشروق للنشر و التوزيع، القاهرة ، ط1 ، 2005م ، ص5

2-1- الرمــز الأدبـــي:

ان الرمز الأدبي ما هو الا عبارة , أو كلمة تعبر أو ترمز عن شيء أو حدث يعبر بدوره عن شيء ما أو يشمل على مدى من الدلالات نتجاوز حدود ذاتها او هو بكلمات اكثر بساطه ربما شيء محسوس يرتبط به عادة مغزى تحديدي انفعالي.

ويعرفه "تندال tandal " الرمز الأدبي بأنه: "تناظر مع شيء غير مذكور يتألف من عناصر لفظية يتجاوز معناها الحدود الحرفية ليجسد ويعطي مركبا من المشاعر والأفكار"

كما تعرف موسوعة "بريستون briston" للشعر والشعرية الرمز الأدبي بانه:"نوع من التمثيل يعني فيه شيء المعروض (عادة شيء مادي) استناد الى ترابطات معينة شيئا أكثر من شيء آخر عادة شيء معنوي[1]"

وقد ميز "باخني bakhni" بين خمسة أنواع من الرموز الأدبية كما يلي:

1- رمز يسيطر بشكل مركزي في عمل واحد مثل المطر في قصيدة أنشودة المطر للشاعر بدر شاكر السياب.

2- الرمز الذي يظهر من حين الى آخر في إنتاج أديب ما، ويتطور في أعماله المختلفة حتى يكتسب أهمية خاصة في حملتها ودلا لتها مميزة بداخله مثل الموسيقى في قصيدة جبران خليل جبران.

[1] شايف عكاشة ، في نظرية الادب ، ديوان المطبوعات الجامعية ، بن عكنون الجزائر، ج 1، دط ، دت، ص91

3- الرمز الذي ينتقل من الشاعر الى آخر ويكسب حياة جديدة في سياق مختلف مثل "غوليس golis"في انتقاله من الملاحم اليونانية القديمة الى قصة "جيمس جويس jims joyiis".

4- الرمز الذي يمارس وظيفته في اطار ثقافة عامة مثل رموز العهد القديم والجديد (التورات و الانجيل) وغيرها من الرموز الدينية الكبرى.

5- الرموز التي تردد في ثقافات مختلفة ليس بينهما علاقة تاريخية محافظة على قيمتها فيها جميعا وينتمي لهذا النوع جميع الرموز النموذجية والخاصة والطبيعة منها مثلا الفم . والماء . اللبن...[1]

وخلاصة القول فإن الرمز الأدبي هو البنية الحية التي يصبح التوقف عندها وتأملها لذاتها قبل أن تتجاوز الى غيرها وأقوى أمارته حساسيته المرهفة بالسياق وتأثره في أعطافه.

2-2- الرمز الأسطوري:

لقد شاع استخدام الأسطورة في شعرنا المعاصر وخاصة في تجارب الثمانينات , ولعل ذلك يرجع الى عجز اللغة التقليدية عند أداء وظيفتها التواصلية "فقد وجد الشاعر من خلال منفذ لإثراء تجاربه الشعرية والفنية وبهذا كانت الأسطورة الفتحة السحرية التي تنطلق من خلالها طاقات الكون اللانهائية، إلى كل دور للحياة الإنسانية" وبمتابعة الرموز القديمة التي يستخدمها الشعراء المعاصرون، يتبين لنا أن معظم العناصر الرمزية إنما ترتبط بالقديم بأشخاص أسطوريين ادخلوا على مر الزمن عالم الأسطورة[1].

ومن أبرز الشعراء الذي استعملوا هذا النوع من الرموز في أدبنا العربي العريق أدونيس، بدر شاكر السياب وغيرهم ، حيث وظفوا الرمز الأسطوري توظيف ناجحا في قصائدهم، ،أما عن الرموز الأسطورية التي استعلمت بشكل مكثف في الشعر فهي "السندباد تموز ، عشتار، المسيح، قابيل، هابيل، برومنيوس، أدونيس، أبولو..."[2]

إن الرمز الأسطوري غالبا ما يكشف عن نفسه بوصفه احتضانا للمتقلبات وتشبثا بالحاضر، ويكشف لنا أيضا في هذا الهوية العتيقة بين الذات والموضوع، بين الاسم والمسمى، وتنبثق هذه الهوية من اندماج الشيء بمعناه والرمز بموضوعه في وحدة عينيه مباشرة[3]

---

[1] عز الدين اسماعيل ، الشعر العربي المعاصر قضاياه و ظواهره الفنية ، دار العودة و دار الثقافة ، ط3 ، 1981م ، ص202.

[2] سعيد بن زرقة ، الحداثة في الشعر العربي ، ابحاث للنشر و التوزيع، لبنان ، ط 2 ، 2004م ، ص243.

[3] خليل مرسي ، قراءات في الشعر العربي الحديث المعاصر، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، دط ، 2000م ، ص28.

ومجمل القول إن الظاهرة الأسطورية تظل متأصلة في أعمال أغلب الشعراء ,وتوجههم الفني بوصفها تراثا إنسانيا بالغ الأهمية في الشعر المعاصر "وقد تنتهي النظرة الشمولية المتأنية لتطوير فن الشعر أو طرائق الأداء والتعبير عن المشاعر الى الكشف عن وعيه بقيمة الأسطورة وأثارها في الشعر باعتبارها مصدر وثائقيا بل مخزونا هائلا لثقافات متعددة[1]"

[1] احمد فؤاد سلطان، مجلة جامعة الاقصى ، مج 14 ، ع 1 ، 2010م ، ص18.

2-3- الرمز الصوفـــي:

يقول القشيري وهو أحد الصوفية في حديثه عن الرمز "أعلم أنه من المعلوم أن الكل طائفه من العلماء لهم ألفاظ يستعملونها انفردوا بها ,عن سواهم، وتواطؤوا عليه الأغراض لهم فيها من تقريب الفهم على المخاطبين بها، أو تسهيل على أهل تلك الصنعة في الوقوف على معانيهم بإطلاقها، وهذه الطائفة يقصد (الصوفية) يستعلمون ألفاظا فيما بينهم قصدوا بها الكشف عن معانيهم لأنفسهم والإجماع والتستر على من باينهم في طريقتهم لتكون معاني ألفاظهم مستبهمة على الأجانب غيرهم منهم على أسراهم أن تشيع في غير أهلها، إذا ليست حقائقهم مجموعة بنوع من التكلف، بضرب بصرف، بل هي معان أودعها الله تعالى في قلوب قوم واستخلص لحقائقها أسرار قوم"

-يتبين من كلام القشيري أنه أصبحت للصوفية لكن اصطلاحا خاصة اتفقوا عليها فيما بينهم , بحيث يفهمونها هم ولا يفهمها غيرهم , أو نقول بالأحرى هي رموز لا يفهمها الا أصحبها

-فالرمز الصوفي يحمل في طياته معنى باطنيا عميقا لا يمكن الظفر به، بما تدل الإشارة في معنى الاخفاء و ينطوي على اسرار روحية ، و معان ربانية لا يمكن كشفها الا لمن فتح الله عليه من أهل الإشارة بهذه الأسرار [1].

[1] وصخي يونس، القضايا النقدية في الشعر الصوفي ، مطبعة اتحاد الكتاب العرب، دط ، دت ، ص338.

-وكان حرص الصوفية شديدا على بقاء الأسرار بينهم لا تتعداهم الا من ليس منهم والتعبير عنه بأسلوب غامض "هذا اما استوجب وجود لغة تتماشى مع النشوة التي يعيشونها فوظف الشاعر الصوفي الرمز كمعادل موضوعي لتلك الحال[1]"

ومجمل القول أن الرمز الصوفي هو عبارة عن فكرة ميتة ,مذهب ينهيه الصوفي تم يفضيه مفحما على الأشياء.

[1] توفيق بن عامر ، دراسات في الزهد و التصوف ، دار صادر ، بيروت لبنان ، دط ، 1999م ، ص99.

2-4- الرمز التـــــــراثي:

إن توظيف الرمز التراثي في العمل الشعري يضفي عليه عراقة وأصالة ,ويتمثل نوعا من امتداد الماضي في الحاضر ,ونغلغل الحاضر بجذوره في تربة الماضي الخصبة المعطاء ,ومن أهم الضواهر التي شهدها أدبنا العربي الحديث احتواؤه على الرموز التراثية المستلهمة من التاريخ للتعبير عن العديد من القضايا التي يعيشها الشاعر , فيمزج الماضي بالحاضر ليكون التواصل والتداخل، حيث ينسكب الماضي بكل إشاراته وأحداثه على الحاضر بكل ماله من مزاجه اللحظة الحاضرة [1]

- والرمز التراثي يلبي حاجات عديدة يحددها على عشري زايد على المستوى الفني بالموضوعية والدرامية , وعن التراث وعلى المستوى الثقافي بإحياء التراث والتواصل مع الثقافة الانسانية , وعلى المستوى النفسي بالهروب من عربية الحاضر الى عالم حلمي أفضل . قد توزعت اهتمامات الشعراء على أنواع من الرموز التراثية ,مثل رموز المعاناة ,رموز الثورة , رموز الشخصيات ,رموز المدن...[2]

[1] رجاء عيد لغة الشعر قراءة في الشعر العربي الحديث ، مطبعة اطلس ، القاهرة ، دط ، 1985م ، ص201.

[2] ابراهيم رماني، الغموض في الشعر العربي الحديث ، ماجستير ، جامعة الجزائر ، 1987م، ص245.

2-5- الرمز العلـــــمي:

-يعتبر عز الدين اسماعيل الرمز العلمي وسيلة اكتشفها الأنسان في وقت متأخر نسبيا ,ذلك عندما أراد أن يشير الى مادة المعرفة إشارة موجزة , وطبيعة الرمز العلمي أنه يشير الى موضوع دون أن يرتبط به ,فهو ينشأ نتيجة لعملية ذهنية تجريدية[1].

-وهو أيضا ما ينوب ويوحي بشيء آخر لعلاقته من قرابة أو اقتران أو مشابهة أو اصطلاحا، إنه مجرد أداة تيسر الفكر تشير الى الأشياء فالإشارة أو العلامة تعلن للإنسان عما يشر إليه[2].

[1] عز الدين اسماعيل ، الشعر العربي المعاصر قضاياه و ظواهره الفنية ، ص198.

[2] شايف عكاشة، مقدمة في نظرية الادب، ص86.

3- الرمز عند الغرب والعرب:

-يعود أصل كلمة الرمز ومعناه إلى عصور قديمة جدا فهي عند اليونان تدل على قطعة من الفخار، أو الخزف تقدم إلى الزائر الغريب علامة على حسن الضيافة، وكلمة الرمز Symbole مشتقة من فعل يوناني يحمل معنى الرمي المشتركjeter ensemble أي اشتراك شيئين في مجرى واحد وتوحيدهما، فيما يعرف بالدال والمدلول، الرامز والمرموز إليه.[1]

-أما لفظة الرمز في لسان العرب فهي "تصويت الخفي باللسان كالهمس، ويكون تحريك الشفتين بكلام غير مفهوم باللفظ، من غير إبانة بصوت، إنما هو اشارة بالشفتين.... ".إذن فالرمز عند العرب يوافق إلى حد معناه في القرآن فهو عبارة عن حركات تقوم بها احدى الحواس (كالعينين، الشفتين أو الفم ...) للإبانة وإظهار ماتخفيه النفس، وتستره الجوانح. ويرتبط الرمز بالدلالة ارتباطا وثيقا إذ أن الرمز يتخذ قيمته مما يدل عليه ويوحي به. ولعله الوسيلة الناجحة لتحقيق الغايات الفنية الجمالية، وإلى إدراك ما لا يمكن إدراكه ولا التعبير عنه بغيره، ولاسيما إذا اتحد مع وسائل أخرى في السياق الشعري، لأن الرمز ابن السياق وهو سمة النعت. ومن معاني الرمز أيضا "الايحاء" أي التعبير غير المباشر عن النواحي النفسية المستترة التي لا تقوى على أدائها اللغة في دلالاتها الوضعية والرمز هو الصلة بين الذات والأشياء بحيث تتولد المشاعر عن طريق الإثارة النفسية لا عن طريق التسمية والتصريح.[2]

---

[1] ياسين الأيوبي، مذاهب الأدب معالم وانعكاسات، الرمزية، المؤسسة الجامعية للدارسات والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان 1982، ص 08.

[2] غنيمي هلال، الأدب المقارن، ط، دار العودة، بيروت – لبنان 1983، ص 398.

-ولئن كان الرمز متداخلا مع علوم البلاغة قديما. فقد أخذ وجها آخرا في القرن التاسع عشر، وصار الرمز رموزا أبرزها الرمز الأدبي والرمز الديني ومايندرج ضمنهما من الفروع. ولهذين النوعين القدرة الكاملة على منح النصوص سمات الانفتاح والامتداد. والتحام الرموز واجتماعها في القصيدة الواحدة يغنيها ويجعلنا ذلك نمر في قراءتها بأجواء ثلاثة... ففي اللحظات الأولى من صلتنا الروحية بالقصيدة الرمزية تبدو القصيدة وقد تحررت من بعض ما نحسبه ضرورة التلاحم ثم تعتصر القصيدة خيالنا، ونهبها ضمائرنا فإذا بنا أمام الرمز البؤري، ونحاول جادين مستشعرين إثراءه واقترانه بخيرات كثيرة، حتى ينتهي بنا الأمر الى الطمأنينة الشاعرة بأننا نعاني صورة أكبر من تلك الخبرات الثرية المتنوعة ذاتها.[1]

-ومن ثم فإن الرمز يدخل القارئ في عوالم لا حدود لها، ويدفعه إلى الغوص في مضمون النص، رغم اعتماده على الحدس والإسقاط. لهذا يوظفه الأديب وبخاصته الشاعر، وهو يدرك أن التعبير الغائي المسطح يفقد الشعر خصائصه وهويته.

-من هنا نعتقد بوجوب الذهاب بعيدا عما يراه ياسين الأيوبي من أن الأديب لا يلجأ إلى الرمز من أجل معناه البعيد بل يرمي قبل كل شيء إلى الرمز ذاته وما يشيعه في نفسه من إمتاع جمالي، يصيب روحه وخياله، كما يرمي إلى إشباع حاسته الفنية وغريزته الجمالية.[2] فالشاعر الأصيل في وطننا

[1] مصطفى ناصف، الصورة الأدبية، ط 3، دار الأندلس، بيروت – لبنان 1983، ص 167.

[2] ياسين الأيوبي، مذاهب الأدب، معالم وانعكاسات الرمزية، ج 2، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان 1982، ص 8-9.

بنا عن هذا المرمى لأنه يسعى من خلال التوظيف الرمزي إلى احداث الأثر الشعري وإشراك القارئ تجاربه وذلك بالإيماء إلى معادلات الرموز وما يوافقها زمن الكتابة.

-ولا شك أن الإنسان منذ وجوده فطر على حب البحث، ومن ثم تولدت عنده رغبة التفسير، تفسير الكون والحياة، بل تفسير كل ما يحيط به، ويغامر نفسه. وكانت التجارب والمواقف التي يمر بها في حياته تدعوه إلى إدراك كنهها، وتسمية الأسماء بأسمائها، فقد أصبحت التجارب الأولى تسمى رموزا والثانية تسمى معاني والانتقال من الرمز الى المعنى يسمى الاشارة الرمزية، وهذه الاشارة تتطلب صلة خاصة بين الرمز والمعنى. ويأتي اللغز بعد ذلك يشكل بؤرة البحث عن المفاهيم، وهذا اللغز هو الموت فظل الانسان يتطلع الى معرفة هذا السر الأكبر. من هنا كان لعالم العقائد والغيب دور كبير في الصور الرمزية وفيها يختلط الشعور باللاشعور وعالم الاشباح والارواح بعالم الناس، وذلك للإيحاء بمعالم نفسية دقيقة متأرجحة بين الابانة والخفاء، يلقي الشاعر عليها أضواء تنفذ الى جوانب منها ولا تستوعبها. والنتيجة اذن أن العلاقة بين الرمز والدين علاقة وثيقة قديمة بدأت مع اعتقاد الانسان الاول ان القوى الخارقة الباهرة تختفي وراء المحسوسات فتلجأ بعد ذلك الى عبادة الشمس والنجوم وسيطرت عليه روح الخرافة فرأى في التمائم وبعض الحركات (الطقوس) خير دواء ثم تدرج العقل البشري وأدرك أسرار القوانين الطبيعية لتجيء بعدها مرحلة السحر ثم يليها زمن الكتابة الرمزية.

-وكان أول كتاب اصدره العالم الألماني "فريديريك كروزرfredrek krozerr "اسمه الرمزية و الميثولوجية لدى الشعوب القديمة وفيه يذكر المؤلف أن كهنة آسيا القدامى قد نقلوا معارفهم الدينية

العليا الى الطبقات الشعبية بطريقة مجازية[1]، فالرمزيون وبخاصة في فرنسا، من ألد أعداء الحركة الطبيعية، لانهم يعتقدون أن المادة والمنطق والنثر أشياء زائفة لا يمكن لها ان تدل على الحقيقة او تصورها فالنثر عندهم مجرد أقصوصة لأنه ينسي الشاعر قدرة الكلمات السحرية الجمالية.

-والواقع أن هناك نصوصا في الشعر العربي و الغربي ، رغم اعتمادها الرمز ، تظل خالدة ، متجددة لأنها تبتعد عن المباشرة ، و تستند إلى لغة الإيحاء و الإيماء و الإشارة و لكن في غير إسراف أو مغالاة .

-- فالشاعر يستخدم الرمز ليدفع القارئ على الفهم و استخدام قواه الإدراكية ، و توظيف حواسه ، للوصول إلى الدلالات و المعاني التي تعجز عن تبليغها اللغة المتداولة ، و المتعارف عليها ، و للخروج من الجو المألوف ، و المجال الحسي و الرتيب و التحرر من الأغلال التي تقف حائلا بين القارئ و النص ، و تأسره بين حدود النظرة المسطحة ، و تجعله يتتبع الدلالات من زاوية واحدة فقط.

-فيعمد المبدع إلى التماهي في هذه الرموز ، و استلهام تراثها التاريخي ،و توظيف بعدها الموضوعي ن لتمثله التراثي تمثلا واعيا ، و تطوير أساليب التعامل معه ، و كيفية استحضاره في النتاجات الأدبية الحديثة، بتقنية متطورة تجمع بين الذاتية و الموضوعية ، الغنائية و الدرامية، الحسية و الرمزية ، منها تقنية "الإقناع" التي تحقق حضور الشاعر و الرمز معا ، و في آن واحد ، دون أي

[1] ناصر لوحشي، الرمز في الشعر العربي، 16، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن 2011، ص 10-12

إمكانية للتمييز أو فصل بينهما ، أو تتبع أي منهما بشكل منفرد و مستقل عن الآخر ، لتحقق هذه التقنية "القناع" ، مبدأ البياتي الشهير (لن أكون حتى تكون أنت أنا) .

4- الشعراء الذين وظفوا رمز الحمامة في شعرهم:

إن الشعراء المشارقة أول من كلفوا في شعر الطبيعة بوصف الحمائم، ولكنَّ شعراء الأندلس كانوا أكثر منهم ولعا وأشد شغفا بهذا اللون الوصفي الذي تفننوا فيه بتنويع الأساليب، وأضافوا إليه وصف ما تميزت به طبيعة المغرب العربي من كثرة المراعي المعيشة والحدائق الفيحاء والأنهار الجارية والرياض وما تحويه من شجر ظليل وثمار مختلفة الألوان والطعوم. ومما يدل على أن الحمائم الساجعة كانت مما تداوله الشعراء في وصفهم، إذ ربطوا بينها وبين ما يلم بالعشاق المدنفين من حنين واسترجاع لعهود القرب والوصال، كتاب فقيه قرطبة، لأبي محمد علي بن حزم المتوفي سنة 456 هـ - 25 ديسمبر 1063 م الموسوم "بطوق الحمامة في الألفة والألاف" وهو كتاب ألم فيه صاحبه بماهية الحب وأصوله وأنواع المحبين وطبقاتهم، ولعل في اختيار ابن حزم هذا العنوان، ما يظهر لنا ولع الشعراء بالحمامة المطوقة التي وصفت في الشعر العربي بالسجع والغناء تارة، وبالنوح والبكاء تارة أخرى.[1]

ونجد كذلك الشعراء الصوفيين كانوا يهيبون في أشعارهم بأنماط تعبيرية ثانية وأساليب موروثة وصور تقليدية شائعة متداولة، إلا أنهم في إلمامهم بالثابت الموروث والمتداول الشائع، كانوا يشربون طابع الرمز والتلويح على حد ما يطلبه الموقف والسياق الغنوصي* للتجربة الصوفية من مقتضياته.

[1] عاطف جودة نصر، الرمز الشعري عند الصوفية، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة 1998 م، ص 301-302

* الغنوصي: كلمة يونانية الاصل ومعناها المعرفة غير انها اخذت بعد ذلك معنى اصطلاحا هو التوصل بنوع الكشف الى المعارف العليا

ويرتبط رمز الحمامة في تشكيله الغنوصي بجذور بعيدة وأصول تاريخية سابقة تجدها في إيمان المصريين القدماء بالروح التي لا تفنى وقد كانوا يصورونها على هيئة طائر ذي رأس إنساني، يحلق بعيدا عن الجسم بعد الموت، ولكنه يعشقه بحيث يعود إليه كرة أخرى، وليس ببعيد أن يكون هذا الرمز قد انتقل من الثقافة المصرية القديمة إلى أفلاطون الذي كان يهيب في فلسفته بكثير من الرموز الأسطورية، ثم تسرب من بعده إلى الأفلاطونية المحدثة ومنها إلى الغنوصي الصوفي الذي صاغ هذا الرمز الغني بالدلالات في قوالب فنية من النثر الذي أخذ شكل الرسائل ومن الشعر الغنائي الرقيق، و سواء أكانت الحمامة المطوقة تَشْدُوًا وتغنّي أم تنوح وتبكي، فإنها قد آلت على أي الأحوال في الشعر الصوفي الى رمز حي على تذكر الروح عالمها المثالي الأول الذي كانت ترتع فيه خالصة من شوائب المادة وعلائق الأجسام الكثيفة التي تعوقها بعد إذ تلبست بها، عن الارتقاء إلى حظيرة القدس والعروج إلى حضرة الروح الكلي، حنينا منها إلى أصلها وجوهرها كما يحن الولد إلى أبيه، والغريب الظاعن إلى الوطن[1]، ومثال ذلك قول ابن عربي في قصيدته بعنوان "تناوحت الأرواح":

ألا يا حَمامـــــــاتِ الأراكَةِ والبـــــَـــانِ تَرفقّْـــــن لاَ تُضْعِفْنَ بالشُجوِ أشْجَانِي

تَـــرفّقْنَ لا تُظَهرن بالنُوحِ وَالبُكـــــــا خفيّ صَبابـــَـــاتي ومكنونَ أحَزانِي

أُطارحُهـــــــــا عندَ الأصِيـــــلِ وبالضُـــحى بَحنـّةِ مُشْتـــــاقٍ وأنـــّـــةِ هَيْمـــــانِ[2]

أراد بالحمامات واردات التقديس والرضى والنور والتنزيه، فالتقديس والرضى للأراكة لأنه شجر يستاك به وهو مطهرة للفم ومرضاة للرب، والنور والتنزيه للبان من حيث الدهن ومن حيث البعد. كما قال: فكانت البان، أي كانت سليمة. فقال للواردات رفقا علي لا تضعفن من التضعيف ما تلقين في

[1] المرجع السابق، ص 303

[2] محي الدين ابن العربي، ترجمان الأشواق، 16 ، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت 1401 – 1981 م، ص 40

خطابكن من ثمرات العشق والمحبة المهلكة للمحبين، أي خطابكن شجيي ويضاعف شجوي وقد يكون من الضعف أي شجوي يضعف شجوكن، من باب قوله: من تقبر إلي شبرا تقربت منه ذراعا.

2- يخاطب الواردات التي ذكرناها، يقول: لا تطهرت بالنوح التي هي المقابلة في الشجو والبكاء إرسال المدامع لسبق المقدور وعدم تبدله. وقد رأيته في مشهد من المشاهد يبكي على ما سبق في العلم من شقاء الدجال وأبي لهب وأبي جهل، من باب قوله تعالى: "وما تردَّدت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته".

فمن هذا المقام يكون هذا البكاء. وقوله خفي صباباتي، وما تنطوي عليه الضلوع من رفة الشوق للمنظر الأجلى، ومكنون أحزاني ما تستره من ألم الفقد عند رجوعها إليها.

3- يقول: أطارحها أقول مثل ما تقول تسيير الى حالة الصدى الذي هو رد الصوت اليك بما يخرج منك. قال الله تعالى للنفس أول ما خلقها: من أنا ؟ قالت له من أنا لصفائها، فأسكنها في بحر الجوع لأربعة آلاف سنة فقالت له أنت ربي. وقوله عند الأصيل وبالضحى، وهما طرفا النهار، وهو قوله تعالى: "بالعشي والإبكار" وقوله: "قبل طلوع الشمس وقبل غروبها" فهو المقدس نفسه بنفسه ويظهر الأثر في غيره فينسب إليه الأمر وهو ليس هناك لأنه به يتكلم وبه يسمع وبه يبصر. وقوله:

تحية مشتاق وأنه هيمان، من قوله: يحبهم ويحبونه. فمن هذا المقام تكون المطارحة بين من ذكرنا والحنين للاشتياق والأنين للهيمان.[1]

[1] المرج السابق، ص 40-41

وقد نجد كذلك العديد من الشعراء استخدموا الرمز للتعبير أو للدلالة مثل:

رموز الطيور:

– لقد استحضر الشاعر "سميح القاسم" لفظة البومة للدلالة على الشؤم في الحياة الذي يولد الألم والحزن، والبومة أيضا مصدر إزعاج للناس مثل العدو، من ذلك قوله في قصيدته "أختي صنعاء":

رُغمَ الأبْعادُ المرصُودةِ

ودُروبِي المسْدوُدةِ

رُغمَ الَأنباءُ المشْؤوُمَةِ

عَنِ قتَلى .... قتَلَى .... قَتلَى

رُغمَ البَومَةِ

وَمَشانِقَ مَلءَ العتُمَةُ مِنْ حوَلِي تتَدَلىَ

يمنَي المعْبوُدَّ

سَيعَوُد سَعيِدَّ [1]

-وفي موضع آخر استحضر كلمة "الحمام"، التي تدل على الفلسطينيين المنفيين الذي مهما طال غيابهم عن وطنهم فهم راجعون له ذات يوم لا محالة مثل الحمام الهاجر الذي لا ينسى وكره يرجع له مهما غاب عنه تجده يقول في قصيدته "على قلعة الامبراطور":

[1] سميح القاسم، الديوان، دار العودة، بيروت، لبنان، د. ط، 1987 م، ص 509

أَيُّهاَ المأمُون فَاسمْع

صَوتَ رؤُيا وَ إِرَادَةُ

وزَغَارِيدُ وِلاَدةُ

فاَلحَمامُ الزَاَجِلُ الَمنْفيِ

لَا يَنْسىَ بِلاَدَهُ[1]

وفي قصيدته "تعالى لنرسم معا قوس قزح" وظف الحمام لذات المعنى، الشخص المسالم المنفي فيقول:

الحَمامَُ الزَاجِلُ الَناظِرُ فِي الأقْفَاصُ يبَكِي...

واَلحَمامُ الزَّاجِل العَائِدُ فِي الأقْفَاص ... يبَكِي[2]

-وفي قصيدته "مزامير" استخدم الشاعر العصافير اليتيمة للدلالة على أطفال فلسطين المحرومين من كل الحقوق والمضطهدين من طرف الاستعمار، حيث يقول:

أيُّهَا العالم تدَعُوكَ العَصافِير اليتَيمِة

مِنْ هُنا مِنْ غَزَة الموْت

وَمن حَنِينَ، وَالقُدسُ القَدِيمَة[3]

-ونجد كذلك النابغة الذبياني في قوله:

[1] سميح القاسم، الديوان، ص 544.

[2] المرجع نفسه، ص410.

[3] المرجع نفسه، ص 194.

واحْكـــــمْ كَحُكمِ فَتاةِ الحيِّ إذْ نَظَرتْ إلى حَمـــامِ شِراعٍ وَارِدِ الثَّمَـــــــدِ[1]

يَحفُّـــــــهُ جانبًا نيقٍ[2] وتُتْبِعُـــــهُ مِثـــــــلَ الزُّجاجَةِ لم تَكْحلْ من الرَّمَدِ

قالـــــــــتْ ألا لَيْتَما هذا الحَمامُ لنا إلى حَمامَتِنـــــــا ونِصفُهُ فَقَـــــــدِ

فَحسَّبُـــــــوهُ[3] فألْفَوْهُ كما حَسَبَتْ تِسعًـــــــا وتِسعينَ لم تَنقُصْ ولـــم تَزِدِ

فَكمَّلـــــــتْ مائةً فيها حَمامتُهـــا وأسْرَعـــــــتْ حِسْبةً في ذلكَ العَـــدَدِ

و قد كان تشبيه رماد الأثافي بالحمام: هم يصفون الرماد الذي بين الأثافي بالحمامة، ويجعلون الأثافي لها، للانحناء الذي في اعالي تلك الأحجار و لا نها كانت منعطفات عليها وحانيات على أولادها.

قال ذو الرمة:

كأنّ الحَمـــــــامُ الوَرقِ فِي الـدَّار جَثَّـــمت[4] على خرِف بين الأثـافي جَوازِلُـــــه[5]

شبه الرماد بالفراخ قبل أن تنهض والجثوم في الطير مثل الربوض وفي الغنم

[1] ابي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، كتاب الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون ، دار الحياء التراث العربي، بيروت لبنان، ج3، ط3، 1377هـ/1969م، ص221.

[2] النيق: الجبل وأعلاه

[3] حسبوه: عدوه

[4] جثمت: هو تحريف في صوابه

[5] الجوازل: الفراخ

وقال الشماخ:

وإرِثْ رَمَـــــــادُ كَالحمَامةِ مـــــاثِلُ ونُؤْيـــــن في مظْلومَتَيْنِ كَدَاهُـــــمَا

وقال أبو جيَّة:

من العرَضـــاتِ غَيـــــر مَخَـــــدَّ نُؤي كَبَـــــاقي الوحْي خُطَّ عـــلى امَـامِ

وغـيرِ خـوالِدٍ لُـوحَّـــــــــــنْ حَتـّى بهـنَّ عَلامَـــــــةِ من غيَّر شَـــــــامِ

كَـــــأنَّ بِهَا حمَامـــــاتٍ ثَلاثـــا مَثَلْـــــــنْ ولـم يَطـــــــرْنَ مَع الحمامِ

ومن الشعراء الذين وظفوا رمز الحمام في شعرهم ابن خفاجة إذًا من هو ابن خفاجة؟ وأين نشأ ؟وكيف كان أسلوبه في الشعر ؟

خلاصـــــــة :

و منه نستنتج أن هناك الكثير من الشعراء الذين وظفوا رمز الحمام في شعرهم بأصناف مختلفة ولذلك من رمزية الحمام الألف والفراغ والشوق وذلك يدل على ثبات العهد وحفظ ما ينبغي أن يحفظ وصون ما ينبغي أن يصان وإنه بخلق صدف في بني آدم فكيف إذا كان ذلك الخلق في بعض الطير، حتى قيل عمر الله البلدان بحب الأوطان. وأخبر الله عز وجل عن طبائع الناس في حب الأوطان فقال تعالى: " قَالُوا ومَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ الله وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا"[1].

[1] سورة البقرة الآية 248.

الفصل الثالث

نظرة في حياة الشعراء الذّين وظفوا رمز الحمام في الشعر الأندلسي

نظرة في حياة ابن خفاجة:

اسمهُ ومولده:

هو أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله خفاجة الجعواري الأندلسي، ولد في جزيرة "شقر" من أعمال بلنسية، شرقي الأندلس سنة 450"[1] هـ ." لقبه المقري التلمساني بـ " صن وبري " الأندلس لشدة اعتنائه بالطبيعة[1].

نشأته و شبابه:

نشأ ابن خفاجة الأندلسي في بلدة (شقر) ، وفي (بلنسية) وشهد تلك الخطوب المتعاقبة على بلده طفلا ، ويافع اً، وشاباً فتركت الأثر البليغ في نفسه، وأولت شعره تلك الرنة من الحنان، والكآبة في أكثر أوصافه[2]. وكانت نشأته في أسرة علم وأدب. وأقبل على الدرس والتزود بالآداب العربية، وتفتحت موهبته الشعرية و غذاها غذاء شعرياً رفيعاً بأشعار عبد المحسن الصوري، والشريف الرضي، ومهيار، والمتنبي، ويضرب لتأثره بهم أمثلة تدل على أنه تأثر بالصوري في مزج الغزل بالطبيعة، وبالشريف الرضي ومهيار في ذكر العيس، والأماكن الحجازية والنجدية، والطيف، والخيال، ونسيم الصبا، وأنفاس الخزامى ، أما المتنبي فيقول أنه تأثر به في لف الغزل بالحماسة[3].

1 : شعر ابن خفاجة دراسة نحوية صرفية دلالية , دراسة مقدمة لنيل درجة الماجيستير, اعداد الباحثة زينب صبري حمدون قراوش , ا د احمد محمد عبد الدائم جامعة القاهرة كلية دار العلوم قسم النحو والصرف والعروض 2012 , ص 8

[2] انظر: روائع ابن خفاجة و منتجات شعرية ، فؤاد افرم البشاني ، دار المشرق ، د ت ، ط4 ،ص269.

[3] انظر : تاريخ الادب العربي عصر الدول و الامارات الاندلسي ،د/شوقي ضيف دار المعارف القاهرة ،د ت ،دط، ص319.

فابن خفاجة " عاش للفن وابتعد عن السياسة[1]"

عصر ابن خفاجة:

ويعد ابن خفاجة من الشعراء المخضرمين، إذ أدرك عصري ملوك الطوائف والماربطين في الأندلس "وانهما أزهى عصور الأندلس حيث قامت دولة الأدب والشعر وغصت مجالس الأمراء بالشعراء[2]"، فقد كان عصر ابن خفاجة حافلاً بالأحداث المتعاقبة على الأندلس عامة، وعلى بلنسية، ففي السنة التي ولد فيها، أو بعدها بقليل توفي آخر أمير يذكر من أمراء الدولة العامرية ببلنسية، وهو عبد العزيز المنصور ابن عبد الرحمن الناصر، وحفيد الحاجب المنصور أبي عامر فخلفه ابنه عبد الملك، ولقب (المظفر) وكان(فرديناندو) ملك (لاون) و(قشتاله) يتحين الفرص لاحتلال بلنسية فمشى عليها، ولم يقو البلنسيون على صده فاستنجد الأمير الصغير الجديد بالمأمون بن ذي النون صاحب طليطلة فخلص المدينة من خطر الفرنجة لمدة إلا أنه لم يلبث أن خلع أميرها المظفر سنة 457هـ 1064م وألحق منطقة. بلنسية بإمارته.[3]

أسلوب شعره:

لقد أنشد ابن خفاجة الشعر، وكان يمزج الطبيعة ويدخلها في كل أغراضه الشعرية من المدح، والعتاب، والرثاء، والشكوى والغزل إلى الوصف، وهو في أسلوبه كثير التصنع؛ لغرامه بالصور البيانية

[1] فنون الادب العربي ، الفن الغنائي الوصف "يشترك في وضع هذه المجموعة لجنة من الادباء الاقطار العربية" دار المعارف القاهرة مصر ، دت ، دط ، ص99

[2] في الادب الاندلسي التطور و التجديد ،محمد عبد المنعم الخفجي ، دار الجيل بيروت ، 1992م ، دط ، ص105.

[3] روائع ابن خفاجة و منتخبات شعرية ،ص 168.

من تشبيه واستعارة وكناية ، وألوان بديعية فقد كان مولعاً بذلك حتى جاء أكثر شعره يختال في مطارف التشبيه والمجاز، وربما جره الإمعان في هذا إلى غموض المعنى واستغلاق الفكرة، وكان يعنى باصطفاء الألفاظ الجزلة والعبا ا رت الفحلة والتركيب الرصين..... ويجنح إلى المبالغة في أكثر صوره الشعرية، وقد فتن ابن خفاجة بحب الطبيعة، وكان لمشاهدها أثر عظيم في نفسه وأبدع في الوصف، وعرض صورا رائعة حافلة بالمثاني الأنيقة، والأفكار الرشيقة بل إننا ن ا ره يغوص إلى الأعماق ويستخرج درر المعاني، ولآلئها، فليس لديه سوى. الشريف من التشبيهات والطريف من الاستعارات[1]

وفاته:

يبدو من قول الفتح ابن خاقان أنه لما تقدمت السن بشاعرنا وحنكته الكهولة "اقلع عن صبوته، ونسك وتاب، وغض عن إرسال نظره في أعقاب الهوى، وصار يكره حتى الإشارة إلى أيام فتوته، وأقام يتذكر أيام الشباب وأقواله السابقة حتى إذا نزلت به الشيخوخة في موكب بلاياها ازداد تقرباً إلى ربه ونظم أبياتاً لتنقش على قبره، وكانت وفاته في الحادية والثمانين من عمره في بلدته جزيرة شقر يوم الأحد في25 شوال سنة 533 هـ[2]

[1] انظر في الادب الاندلسي التطور و التجديد ،ص 519.

[2] روائع ابن خفاجة منتخبات شعرية ، ص 299.

نظرة في حياة ابن زيدون:

اسمه و مولده: هو ابو الوليد احمد ابن عبد الله المخزومي المشهور بابن زيدون، ولد بقرطبة سنة 394هـ/1003م في خلافة هاشم الثاني، و هو هاشم بن الحكم الذي خضع لنفوذ العامريين و حكمهم و قد عاصر عهد الفتنة و شهد الصراع بين الامويين على الحكم و بين الامويين و العامريين و بين العرب و البربر. و لما قتل آخر خليفة اموي و اجتمع وجهاء قرطبة و اقاموا حكومة الجماعة الأرستقراطية و على راسها ابوا ابو الحزم بن جهور[1].

نشأته: نشا ابن زيدون في بيئة مثقفة و كان ابواه من وجهاء قرطبة و أغنيائها و فقهائها ، فاحظر له الادباء و المربين، لكن والده مات عندما كان ابن زيدون في الحادية عشر فاتمه به جده لامه، فتثقف ثقافة حسنة و نظم الشعر باكرا و كان ابن زيدون منحازا لابي الحزم ابن جهور و صديقا لابنه ابي الوليد، فلما تسلم ابن جهور الحكم اتقدم الشاعر و اوكل اليه النظر في اهل الذمة و جعله سفيرا لدا بعض ملوك الطوائف و لقبه بذي الوزارتين[2].

أسلوب شعره: لقد انشد ابن زيدون الشعر في ولاده، و هو من نوع الغزل الصادق، فيه تتجلى قوة العاطفة الشاعر، و هي عاطفة تتأرجح بين الشكوى و العتاب و الا لم و الذكرى و الحنين و الرجاء و يبدوا الشاعر في غزله ناقما على الوشاة، حاقدا على الدهر، و اللافت في غزل ابن زيدون و في شعره بعامة ميله الى المبالغة، التي هدف منها الى التأثير في السامع و تحريك العواطف، و في شعر ابن زيدون ابيات تدل على انه لم يتخلص من رواسب القديم، و المعروف انه عاش في بيئة تختلف عن تلك التي عاش فيها المشارقة، وع ذلك ظل يقترض الصيغ و التعابير من الشرق القديم.[3]

وفاته: بقي ابن زيدون الى جانب المعتمد حتى اضطربت الأحوال في اشبيلية، فارسل المعتمد ولده الحاجب و ابن زيدون لتهدئتها، كان شاعرنا كبيرا في السن مريضا، فاشتدت عليه وطأة الحمى وتوفي

1 ديوان ابن يزدون، شرح الدكتور يوسف فرحات، الناشر دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ط2، 1415هـ/1994م، ص14.
2 نفس المرجع، ص14.
3 المرجع السابق، ص16.

في اشبيلية و دفن فيها سنة 463هـ/1070م تاركا ديوانا شعريا في الغزل و الرثاء و الوصف والشكوى و العتاب و المديح و الاعتذار.[1]

1 ابن زيدون، ص16-15 .

نظرة في حياة ابن عربي:

اسمه ومولده: هو محمد بن علي بن احمد الطائي الحاتمي المرسى، المعروف الدين ابن العربي المكنى بابي بكر و الملقب بالشيخ الاكبر ولد سنة 560ه /1165م بمرسيه في الاندلس، و انتقل الى اشبيليا وتنقل في البلاد فزار المغرب و كتب الانشاء لبعض الامراء فيها ، وزار مصر ، وقد صدرت عنه اقوال استنكروها عليه وعمل بعضهم على اراقة دمه و حبس مدة ثم خرج ناجي بمساعدة علي بن فتح الجبائي، كما زار الحجاز وسمع بمكة من زاهر بن رستم ، ومر ببغداد وسكن الروم مدة حتى استقرى اخيرا في دمشق وسمع فيها من ابن الخرساني ، وكان سمح في موطنه من ابن يشكو و ابن صاف[1].

نشأته: نشا ابن عربي في بيئة مثقفة كان ذكي كثير العلم، زاهدا منفردا متعبدا متوحدا و قد عمل خلوات وعلق شيئا كثيرا في تصوف اهل الوحدة و قد عظمت جماعة و تكلفوا لما صدر منه ببعيد الاحتمالات و نقل الذهبي في سياق ترجمته عن ابن دقيق العيد انه سمع الشيخ عز الدين بن عبد السلام يقول ان ابن العربي (شيخ سواء كذاب يقول بعدم، العالم ولا يحرب غرب) اما الذهبي نفسه فقال: (ان كان محيي الدين رجع عن مقالاته تلك قبل الموت)[2] فقد فاز و ما ذلك على الله بعزيز و مما قاله ايضا: و له شعر رائق و علم واسع و ذهن وقاد و ريب ان كثير من عباراته لها تأويل الا كتاب النصوص.

أسلوب شعره: كان شعره يعرف بالبساطة و السهولة وقد اهتم باستناد شعره و مضمون نوع الغزل الصادق و العاطفة الموحية. و كان يمزج الطبيعة و يدخلها في كل اغراضه الشعرية من المدح و العتاب و الشكوى و الغزل و الوصف ،كان اسلوبه يحترف بالتصنع[3].

1 ديوان ابن عربي الشيخ الاكبر ابي بكر محيي الدين محمد بن علي بن محمد الطائي الحاتمي المرسى المتوفي سنة 631ه، سرحة احمد حسن بنسخ دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط1، سنة 1416ه/1996م، ص4.

2 نفس المرجع، ص5.

3 نفس المرجع، ص4.

وفاته: ظل ابن عربي يحرر و يؤلف دون كلل أو ملل حتى أواخر أيامه حيث بلغ الثمانمين، فجاءته المنية في دمشق في منزل ابن الذكي و كان يحيط به أهله و أتباعه من الصوفية ليلة الجمعة 21 ربيع الآخر سنة 637هـ/1240م ، و قام ابن الذكي بغسله و حمله مع اثنين من مريديه هما ابن عبد الخالق و ابن النحاس الى خارج دمشق و دفنوه في الصالحية شمالي المدينة في سفح جبل قسيون بتربة خاصة بأسرة ابن الذكي، و لا يزال قبره مزارا للناس[1].

1 ديوان ابن عربي، مرجع سابق، ص6.

نظرة في حياة لسان الدين ابن خطيب:

نسبه ومولده:

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن أحمد السلماني –نسبة إلى سلمان، وسلمان حيٌّ من مراد من عرب اليمن القحطانيين– القرطبي الأصل ثم الطليطلي اللوشي الغرناطي. يلقَّب بلسان الدين، وهو من الألقاب المشرقية، وقد أسبغ عليه الغني بالله النصري لقب ذي الوزارتين؛ لجمعه بين الوزارة والكتابة. ويقال له: "ذو العمرين"؛ لاشتغاله بتدبير الحكم في نهاره، والتصنيف في ليله. ولد بمدينة لَوْشَةُ في الخامس والعشرين من شهر رجب سنة 713هـ / 1313م، وتوفي قتيلا بمدينة فاس في ربيع الأول من عام 776هـ / 1374م[1].

نشأته:

نشأ لسان الدين بغرناطة، وتأدَّب على شيوخها، وهم كثر، فأخذ عنهم القرآن، والفقه، والتفسير، واللغة، والرواية، والطب، وصناعة التعديل. وقد ذكرهم تحت عنوان "المشيخة" في آخر كتاب "الإحاطة". وروى ابن خلدون أن لسان الدين تأدَّب على مشيخة غرناطة وأخذ عن أشياخه دون أن يذكرهم، واكتفى بالقول بأنه اختص بصحبة الحكيم المشهور يحي بن هذيل، فأخذ عنه العلوم الفلسفية، وبرز في الطب، ونبغ في الشعر والترسل.

[1] ريحانة الكتاب و نجعه المنتاب للسان الدين ابن خطيب، تحقيق محمد عبد الله عمان ، ط 1400،1401ه/1980،1981م، دار النشر مكتبة الخانجي.

أسلوب شعره:

وأضاف: "وكان الوزير ابن الخطيب آية من آيات الله في النظم والنثر، والمعارف والأدب، لا يساجل مداه، ولا يهتدى فيها بمثل هداه"، كما عدَّه ابن الأحمر: "شاعر الدنيا، وعلم المفرد والثّنيا، وكاتب الأرض إلى يوم العرض ... ".

وكان ابن الخطيب معجبا بشعره، معتدًا به، تناول فيه موضوعات الشعر العربي وأغراضه المعروفة من مديح ورثاء وغزل، وقد استفرغ معظم مدائحه في سلاطين بني نصر، وكان أبو الحجاج يوسف أوفرهم نصيبا. كما مدح سلاطين بني مرين بالمغرب. وجرى في قصائد المديح ومقطوعاته على سنن قدماء المشارقة، فبدأها بالغزل ووصف الخمر والطَّلل، وعدَّد فيها صفات الممدوح المعروفة من شجاعة وكرم ومروءة وعدل ... كذلك له مدائح نبوية قالها في مناسبة ذكرى مولد الرسول الكريم، أشاد فيها بذكره، وأشار إلى بعض معجزاته، وهي تختلف عن قصائد المدح من حيث دفق العاطفة وحرارة الإيمان.

وفي الرثاء بدت عاطفته صادقة، عبر فيه بوجدانية صادقة عن إحساسه العميق بحقيقة الموت، فلمّا توقّع، وهو في السجن، مصيبة الموت، نظم شعرا مؤثّرا، بكى فيه نفسه: (المتقارب)

بعدنَا وإِنْ جَاوَرتْنَا البُيُوتْ *** وَجِئْنَا لِوعدٍ ونَحنُ صُموتْ

وكُنّا عِظامًا فَصرْنَا عِظامًا *** وكنّا نَقُوتْ فَهَا نَحْن قُوتْ

وكُنّا شُـمُوسْ سَمَاءْ العُلَا *** غَربنَ فَناحَتْ عَليهَا السّمُوتْ

فَقُل للعُدَا ذهَبَ اِبنُ الخَطِيبْ *** وَفَاتَ فَمَنْ ذَا الَّذِي لَا يَفُوتْ؟

وَمَنْ كَان يَفرحُ مِنهمْ لَهُ *** فَقُلْ: يَفرحُ اليَومَ مَنْ لَا يَمُوتْ

وقد أجمع النقاد على أنه من كبار وشَّاحي الأندلس، برغم أن فن التوشيح طمس رسمه في زمانه، وأهم موشحاته تلك التي مطلعها:

جَادكَ الغَيثُ إِذَا الغَيثُ هَمَّى *** يَا زمانَ الوَصلِ بِالأَنْدلسِ

لَمْ يَكُنْ وَصْلُكَ إِلَّا حُلْمًا *** فِي الكَرَى أَوْ خِلسةُ المُختلسِ

والرواية، والطب، وصناعة التعديل. وقد ذكرهم تحت عنوان "المشيخة" في آخر كتاب "الإحاطة". وروى ابن خلدون أن لسان الدين تأدَّب على مشيخة غرناطة وأخذ عن أشياخه دون أن يذكرهم، واكتفى بالقول بأنه اختص بصحبة الحكيم المشهور يحي بن هذيل، فأخذ عنه العلوم الفلسفية، وبرز في الطب، ونبغ في الشعر والترسل.

وفاته:

ولما توفي سلطان المغرب في ربيع الآخر من عام 774هـ فقد ابن الخطيب حاكما مخلصا يحميه من أعدائه، فلجأ إلى الوزير أبي بكر ابن غازي، الذي تولَّى أمور الدولة ريثما يكبر ابن السلطان الطفل السعيد.

وانتقل ابن الخطيب والوزير ابن غازي من تلمسان إلى فاس، فقام الثوار واقتحموا مدينة فاس ونادوا بولاية أحمد ابن السلطان أبي سالم، فأذعن ابن غازي لمطالبهم، فخلع الطفل السعيد، ودخل أحمد

البلد وجلس على العرش، وذلك في أوائل محرم من العام 776هـ. عندئذ تحقَّق لسلطان غرناطة ما يريده، فقبض سلطان المغرب الجديد على ابن الخطيب، وأودعه السجن، وأخبر الغني بالأمر، فأرسل الغني وزيره ابن زمرك إلى فاس، فأحضر ابن الخطيب في مجلس شورى، ووجهت إليه التهم المذكورة، وامتحن بالعذاب

وبرغم دفاع لسان الدين ابن الخطيب عن نفسه وظهور براءته من تهمة الزندقة، فقد أعيد إلى السجن. ثم دسَّ إليه خصمه الوزير سليمان بن داود بعض الأوغاد من حاشيته، فطرقوا السجن ليلا وقتلوه خنقا. وفي اليوم الثاني أخرجت جثته ودفن في مقبرة باب المحروق، أحد أبواب فاس القديمة. ثم أخرجوه في اليوم الثالث من القبر، وأشعلوا من حوله النار، فاحترق شعره واسودت بشرته، ثم أعيد إلى القبر قبل أن يحترق، وذلك في ربيع الأول من العام 776هـ. وما يزال قبره قائما في باب المحروق بفاس في ضريح صغير عليه هذه العبارة: "هذا ضريح العلامة لسان الدين ابن الخطيب".

نظرة في حياة ابن عبد ربه:

اسمه و مولده: ابن عبد ربه هو ابو عمر احمد بن محمد بن عبد ربه و جده الاعلى "سالم " مولى الامير هشام بن عبد الرحمن الداخل. ولد بقرطبة في 10 رمضان 246هـ، من اعلام الشعراء الكتاب في الاندلس في عصر خلافة قرطبة تلقب بابن عبد ربه في اتجاهات الشعر الثلاث السائدة في الاندلس فكتب على الاتجاه المحافظ و الاتجاه المحدث تارة اخرى و تراه ثالثا يتجه الى المحافظ الجديد و بذلك عرف شعره كل الاتجاهات لأنه لم يلزم نفسه اتجاها محددا ينتسب اليه[1].

نشأته: نشا ابن عبد ربه في قرطبة و تتلمذ على عدد من علمائها و شيوخها مثل بقي بن مخلد و ابن وضاح و الحوشي حصل على ثقافة اسلامية ... رفعت منزلته بعد ان كان واحدا في جملة المثقفين حيث كان شاعرا كبيرا من شعراء عصره بل لعله يقف في مقدمتهم و قد كان المتقدمون يعجبون به و بخاصة قدرته على النظم و محاولته الاهتداء الى المعاني الجديدة و كان شاعرا مكثرا غزير الشعر مقتدرا على الاطالة متصلا بأحداث عصره في السياسة و الاجتماع و الحياة و كان شعره صورة لشخصه كما كان صورة لعصره[2].

أسلوب شعره: يعد ابو عمر احمد بن عبد ربه في رؤوس الشعراء الاندلس في القرنين الثالث و الرابع يعد في اشهر الشعراء و امراء الدولة المروانية و خلفائهم و لعل شهرته في زمانه كاتبا مصنفا لا تقل عن شهرته شاعرا مقدما. و تحدثنا تراجم ابن عبد ربه عن اعجاب المتنبي بشعره الذي يسمع به و تقديمه اياه على غيره من شعراء الاندلس فقد كان في جمل ما اعتنى به الحكم المستنصر خليفة قرطبة العظيم و ما ضمه من آثار الأندلسيين الى مكتبته و علق عليه بخط يده[3].

وفاته: عاش ابن عبد ربه أيّاماً مشرقة في فردوس القديم و لم يتبق لنا من شعره الا قصائد ومقطوعات في كتاب "العقد" و قطع متناثرة و اما عن وفاته لم نجد تاريخا محددا عنها

[1] ديوان ابن عبد ربه، جمعه و تحقيقه و شرحه، د/محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، ط1، 1399ه/1979م، ص3.
[2] نفس المرجع، ص5.
[3] المرجع السابق، ص10.

الجانب التطبيقي

الحمام و رمزيته عند الشعراء الأندلسيين:

الحمام: لم يفرد الشاعر الحمام بكل انواعه و اشكاله، بالوصف الا في مقطوعة واحدة الا انه اكثر من ذكره في درج الاغراض الاخرى من رثا و حنين و غزل و مدح و مجلس انس و هو في ذكره له يعني بصفاته المادية المنظورة الا النادر و انما يوجه اكبر عناية الى صوته و غنائه و شدوه. الذي يؤوله تبعا للحال الشعورية التي يكون عليها، فهو شعر بنشوة الحياة و احس بالفرحة تملا كيانه، خلع ما يصر به في اعماقه على الحمام فصوره شاديا مغنيا ، مترنما، ساجما ، تطرب الشجرة لغريده فتهتز له و تنثني، و ربما نثرت عليه نورها معربة بذلت عن تأثرها و نشوتها.

ولكنه اذا احس بثقل الحياة و متاعبها و احزانها و شعر بآلام الغربة مكانا و زمانا نظر الى الحمام من واقع هذا الاحساس، فجاءت صورة مناقضة للأولى فهو يهيئ الاحساس بالآلام و الاحزان بعد ان كان يوحي بغنائه و هديله بمعاني الفرح و الانشراح للحياة، فالحمائم تؤثر في نفسيته الرقيقة ببكائها، فطرب لها، و يستمد لسماع اصواتها الشجية ذكرياته بما فيها من افراح و اقراح.

الا اطَرْبَتَني و الرْنِيمُ طُروبُ حَمائِمُ تَبكي و البُكَاءُ ضُروبُ

لمّ خَلفَ اِسْتارُ الظَّلامُ مَا تمَّ تَمَزَّق فَيثها القَلوَّبُ جُيوبُ

سَجَعْنَ و عَهَّدِي بِالهْوى مُتَقَادِمُ فَمَا وَدَّتْ شَجوى و الخُطوبُ تَنُوبُ[1]

و قد يشوقه الحمام بسجعه ، و ذكره بماضيه السعيد مع الاحبة فيشتد به الحنين اليهم يبكي كما يبكي الحمام، و يعيشانها لحظات تغمرها فيها احساسات وجدانية واحدة و تشعر ان في ظلمتها بنوع من التقارب و الوحدة حتى انه لصعب التمييز فيما بينها.

و مَا شَاقَّني الاّ حَفِيفُ اَرَاكْة و سَجَعَ حَمَام بِالغَمِيمِ تَرَنَّمَا

و حَسَبُكَ مَنْ صَبَ بَكى و حَمَامةً فَلْمَ يَدَرِ شَوْقًا ايَمَا الصَبُ مِنْهُمَا[1]

[1] ابن خفاجة أبو اسحاق ابراهيم ، الديوان ،دط،تحقيق مصطفى غازي، الاسكندرية ، منشاة المعرف، 1960، ص298-299.

و هذه النظرة الى الحمام و قد تدفع الشاعر الى الاحساس به على نحو اعمق، فيستعير بعض صفاته، ليفصح بها عما تنطوي عليه جوانحه من شدة الشوق و حرارة الحنين الى صديقه البعيد عنه، فالحمام يشوقه في صديقه فيهتز لذكره و تخفق اضلعه خفقان الحمام الاورق بجناحيه.

و يُهَيجُنِي نَفَسُ النَّسيمُ اذَّا سَرى و يُشْوقَني فِيكَ الحَمَامُ الَّاوْرَقِ

خِفِقَتَ لِذكرِكَ اضْلُعِي فَكأَّنَ لِي فْي كُلِ جَانِحة جَنَاحًا يَخْفُقِ[2]

والشاعر اذا اشتد به الحزن و أرقته الذكرى فاشذ الحمام ان يطارحه شجوه وأحزانه لعله يجد في ذلك بعض التخفيف لما يمسه من الام و اشجان.

أَلاَ سَاجِل دُموعِي يا غَمَام وطَارحَني بِشْوكِ يا حَمَام[3]

ولكن هذا الاحساس بالحمام بترجح بعدئذ فتارة ينظر اليه على انه المثل الاعلى في رقة الاحساس و صدق العاطفة و حرارة الشوق فيقيس عليه نفسه مبينا بانه لا يقل عنه احساسا و شعورا.

كَما بَنتْ اِيكَ بِالعَراءِ مَرنَةً تُنَادِي هَدِيلًا قْد اضَلتُه نَائِياً

و يَنْدَبُ عَهَداً قد تَفْضَى بَرامَةً ووَكَراَ بِأَكْتافِ المِشْقر خَالياً

بِاخَفُقِ احَشائِي و انَبا حِشَيتِي و اضْرُم انَفاسًا و انْدَى مَآفيًا[4].

ينظر اليها طيرا آخرا من متالف نفسية التي استبدت بها الهموم و تناوشتها الآلام و الاحزان، فيصوره دونه في الإحساس هفو يندب صحبه الذين قضوا نحبهم و يبكيهم في شجو لم يعرفه الحمام .

و انَدُبِ اشْجِي رَنَة حَمامَهُ و ابَكِي و اقَضِي في ذِمَامِ الرِمَامِ[5]

[1] نفس المرجع، ص233.
[2] المرجع السابق، ص189.
[3] ابن خفاجة الديوان، ص 238.
[4] نفس المرجع، ص284.
[5] المرجع السابق، ص259.

و هو وصف يعتمد الشاعر فيه رسم بعض صوره على معطيات بيئته العلمية و الاجتماعية، فيذكر تلاوة الصحف و فهم الحرف كما يذكر الطوق و خضب الكف و هما مما تتزين به المرأة في ايام الافراح.

من هنا يستحيل الفضاء الواقعي الى فضاء نابض بدلالات نفسية تحمل مشاعر الحزن العميق على فقد المكان الاول و القلق القاتل من اجواء المكان الثاني الذي اصبح اشبه بكابوس مريب يجثم على قلب الشاعر و صدره فكلما احس بالابتعاد ازداد الحاحه الداخلي على العودة:

احَبْبتُ و قَد نَادا الغَرَامُ و فَاسَمعا عَشِية غِنَائِي الحَمَامُ فَرجَعاً

فَقُلتُ ولِي دَمَعٌ تَرقَرق فَانَهَمِي يَسِيل وصَبر قد و هَي فتَضَعْضَعَا

إلاَّ هَلْ إلىَ أرْضُ الجَزيرة او بِه فَسَكن انَفاسًا و إهدأ مَضَّجَعاً[1]

فقد هاج الحمام في نفس الشاعر الشوق الى مكان الالفة الذي اصبح التواصل معه هو حلمه و هاجسه في غربته فمكان الغربة ليس بيتا لذات الشاعر سوى الموت اما مكان الالفة فهو المكان المحوري الذي يتربع على قلبه له كل الفاعلية و القدرة على شد الشاعر اليه و لو كان ذلك حلما.

تلعب الطبيعة دورا في استشارة احاسيس الغربة و الحنين في نفس الشاعر فهو لا ينسى ذكرياته التي قضاها بين احضان طبيعة بلاده الفتانة الامر الذي زاد من خصوصية المكان الاول و انجذاب الشاعر اليه و نفوره من مكان الواقعي، و ضاعف مفردات الغربة البغيضة في هذا المكان فالغربة في شعره ليست بكاء على الوطن و حسب بل بكاء ايضا على الطبيعة و مظاهر الجمال التي عشقها و يقول:

و ربْ نَسِيمُ مُرٌ بِخِطَر عَاطِراً رَقِيقَ الحَواشي لاَ يحَسُ دَبِيباً

وجَدتَ بِه مَنْ ذَلكَ الماءِ بَلةٍ و من نُورِ هَاتِيكَ إلاَبَاطِحَ طَيباً

[1] الديوان ابن خفاجة، ص128.

فَما كَان إلاَّ إن هَتفَتْ حَمامةً و سَاعَدتْ شَوقي فَاهْتَزَرَتَ قَضِيبا

و قَد قَلدَّ النُوارِ جيـــَّـدَ لِرَبوةٍ هُنَاكَ و نحَر للفَضَاءِ رَحِيباً

و افْصَحَتَ الوْرَقَاءُ فِيْ كُلِ تَلَعَةٍ نَشِيداً و قَد رَقْ النْسِيمُ نَسِيباً

و كَانَ عَلى عَهدِ السُلو تَغَنيا يَهِيجُ اطَرابي فَعَادَ نَحِيباً

دَعَا بِغُروبِ الدْمَع و دار غُربَةً فَلّمْ أر إلاَّ دَاعِياً و مُجِيباً[1]

تحتل صورة الحمام مكانا اثيرا في مخيلة الشاعر و هي تمثل امتدادا نفسيا و شعوريا لتجربته و تتردد كدوال لهيجان الشوق و الحنين فغناؤها يثير في نفس الشاعر اللهفة الى مكان الالفة و من ثمة فهو يخلع عليها احساسه و حالته النفسية.

لقد بكى الشاعر زمن الشباب، وندبه في حزن عميق وإن هذه الإشكالية (الشباب/الشيخوخة) تعد محور شعره في الفترة الثانية من حياته وهي الفترة الطويلة بالقياس النفسي للزمن.

وهذه الإشكالية لا تبرز في قصائد مستقلة وحسب، بل تشيع في كل مواضع قصائده، الأمر الذي يجعل منها أهم إشكالية نفسية عانى منها الشاعر وتظهر خاصة في خوفه الشديد من تعاقب السنون وكذلك الخوف من الموت، من ذلك قوله:

ألا سَاجِل دُمُوعِي يا غَمَـام وطَارِحني بِشَجَوِكَ يا حَمَامَ

فَقد وفّيتها ستِّين حـَولاً و نَادَتني ورائي هَل أمَـامَ

وكنْت ومن لباناتي لُبينـي هناك ومن مَراضِعي المَدَامَ

يُطَالِعُناَ الصَبَاحُ بِبطْن حزوى فينْكرنا ويُعرِفنا الظِـلاَمَ

وكان به البَشَام مَراحَ أَنَـسُ فَماذا بَعدنا فِعل البَشَـامِ

[1] ابن خفاجة الديوان، ص112-113.

فيا شرخَ الشباب ألا لقـاء يبلّ به على يئـس أوام

ويا ظلّ الشباب وكنت تنـدى على أفياء سرحتك السـلام[1]

ذات الشاعر تصرخ معلنة تقدم السن بها وبداية رحلة الشيخوخة فتجعل من الحمام مكافئا خارجيا لانفعالها الداخلي، فالحمام هنا «هو الشجى الذي يبعث الشجى[2]» والشاعر لا يتمالك نفسه أمام شجو الحمام فيدعوه ليشاركه حزنه بصوته الشجي مثلما يدعو الغمام ليساعده أيضا على انهمار دموعه انهمار الأمطار الغزيرة، ومع أن الشاعر يعرف استحالة العودة إلى الشباب فإننا نراه يستفهم عن إمكانية العدول عن المشيب والعودة إلى الشباب وهذا الاستفهام الذي يتكرر كثيرا على مستوى الخطاب الشعري يكشف أن الذات الخفاجية في نزوعها نحو الخلاص من قهر الزمن على الرغم من علمها باستحالة الرجوع إلى الشباب، لم تيأس تماما من تحقيق ذلك الأمل أو الصوت الداخلي الذي يلازم تجربتها في مواجهة الزمن إن هذا الاستفهام يرتبط برغبة خفية في مواجهة المستحيل تلك الرغبة التي تمثل جوهر المأساة .»ويجتمع الحنين إلى الوطن بالحنين إلى الشباب في مواقف كثيرة فتظهر عاطفة الشاعر الحزينة ويرتفع صوته الباكي في تعبير شعري مفعم بخلجات إنسانية وتلتقي عند الشاعر أحاديث غربتين: غربة المكان بغربة الزمان وصيرورة الشباب إلى ذكريات مؤرقة حزينة»: فيقول:

سَجِعتُ وقد غنّى الحَمامُ فَرجَعًا وما كنتُ لَولاَ أنَّ تَغَنَى لأسَجَعَا

و أنَدبُ عَهَدا بِالمشقر سَالفًا و ظَل غَمَام للصَبى قَد تقَشَعـاً

ولم أدرِ ما أبكي أرسَمُ شبَيبـة عَفا أم مصَيفا من سَليَماً ومَربعاً

وأوجَع تَودِيعَ الأحِبةِ فِرقَـة شَبابِ على رَغْم الأحِبةِ ودَعـاً[3]

و يلتقي الاغتراب الزماني الذي يعانيه الشاعر مع اغتراب مكاني آخر وهنا تتولد في نفسية الشاعر حساسية خاصة تتجاوب مع الأحزان فيثيره نواح الحمام ويبعث فيه الحزن، فالحمام هنا «هو رمز لمحتوى شعوري مكبوت»،في ذات "ابن خفاجة" يتمثل في ألم الفقد والشجو العميق الذي هاجه

[1] ديوان ابن خفاجة، ص64-65.
[2] اليوسف يوسف، الغزل العذري، ط2، بيروت، ديوان المطبوعات الجامعية دار الحقائق للطباعة و انشر، 1981-1982، ص48.
[3] ابن خفاجة. الديوان. ص56.

الحمام في نفسه، حيث راح يستعيد ذكرياته الدفينة ويخرج ما يكبته من ألم وحسرة باكيا بمرارة على صباه وشبابه معا وأيامه الزاهية التي أفلتت منه بفعل الزمن.

إن الأمكنة «تنتقل من مرحلة المجاز إلى الصورة المرئية حين ننتقل أو نجبر على الانتقال إليها لكن المكان الأول يبقى هو نواة الأمكنة في العالم سواء في تصورنا الذهني أو في ممارستنا اليومية»،ولذلك فكلما كان الشاعر عارفا بتفاصيل المكان الأول، كلما ازداد شقاؤه ومعاناته في المكان الثاني وهذا ما يكشف عن تقاطب بين مكانين متعارضين يتجاذبان النص الحنيني المكاني هما)مكان الألفة – مكان الغربة) ويقوم تعارضهما في ذهن الشاعر ونفسيته:

وأفَصَحتْ الورقَاء في كل تَلَعة نشيدا وقد رقَّ النّسيم نَسيباً
وكان على عَهَد السلو تغنّيا يهيج أطرابي فعاد نحيبا
دعا بغروب الدمع والدار غربة فلم أر إلاّ داعيا و مجيبا[1]

فصورة الحمام –هنا– تطرح تقاطبا وتناقضا بين المكانين في نفس الشاعر، فغناء الحمام في وطنه كان يبعث في نفسه السرور ثم أصبح في دار الغربة مجرد نحيب يبعث على الحزن والبكاء. وترتفع نغمة الفقد –فقد الشباب– عنده:

وإني إذَا ما شَاقَني لحَمامَـةً وهَزتنَي لبَارقَة ذكْـرى
لأجَمع بَين الماءِ و النَارِ لَوعـةً فمن مقَلة ريا ومِن كَبدِ حَـرى
وقد خَفَّ خَطْبُ الشَيَبُ في جَانِبِ الرَدى فصَارت به الصُغرى التِي كانَت الكُبرى
و للشِعر عِندي كلّما نَدبَ الصبى فأبكي محلُّ ألحق الشِّعر بالشَّعـرى
فليت حديثا لِلحَداثة لُو جـرى فأسْلى وطَيفَا للشَبِيبة لُو أسـرَى[2]

ومن غزله أيضا هذه القصيدة الطويلة التي نجتزئ منها هذه الأبيات يخاطب فيها البرق ويتغزل:

[1] ابن خفاجة. الديوان. ص 113.
[2] نفسه ،ص ص 148 ،149

لَك اللهُ مَن بَرق تَراءى فسلَّما وصَافَح رسَماً بالعَذَيب ومُعَلِماً
إذا مَا تجَاذبنا الحَديثَ على السَرى بَكيتُ على حُكْمِ الهَوى و تَبَسُمًا
ولمْ أعتنق بَرق الغِمامِ وإنّما وضَعتُ على قَلبي يَدِي تألُّما[1]

إن البرق المتبسم –هنا– لا يشارك الشاعر في مخاوفه وآلام حبه، ولكن عناصر أخرى من الطبيعة تتجاوب معه مثل الحمام وسرحة الوادي التي هزها الشوق مثلما هزه:

ومـــا شَـــاقني إلاّ حَفِيـــفُ أراكَـــةً وسَـــجَع حمـــامِ بـــالغَمِيمَ تَرنمَـــاً
وسَـــرحَة وادَ هَزهَـــا الشَـــوقُ لا الصَـــباَ وقَـــدَ سَـــجَع العُصَـــفُورُ فَجَـــراً فَهَيِنمـــاً
أطَفَـــتَ بَهَـــا أشَـــكو إليَهـــا وتشَتكَـــي وقـــد تَـــرجَم المكّـــاءَ عَنهَـــا فَأفَهمـــاً
تحَـــنُ ودمـــع العَـــين يسْـــجم والنَـــدى وقـــر بعيـــني أن تحـــن ويسجمـــا
وحَسَبكَ منَ صَب بَكى وحمامَة فلم تَدر حَقا أيمَا الصَبُ منَهُما[2]

إن الاندماج بين الشاعر والطبيعة يبلغ مداه، فهو يطوف بسرحة الوادي يبثها شكواه وتبثه شكواها، يحن ويذرف الدمع وتحن هي الأخرى وتذرف الدمع كما يتجاوب الحمام أيضا مع الشاعر فيبكي مثلما بكى الشاعر العاشق.

اولا: الحمام عنصر من عناصر الطبيعة الأندلسية:

دأب الشاعر الأندلسي على رسم لوحات بارعة، أنيقة الألوان، محكمة الظلال، زاهية الأصباغ للرياض، وما اشتملت عليه من أشجار وأنهار وظلال وأطيار، لوحات تشد انتباه القارئ وتستوقفه، وتثير انتباهه، وتستقطب إعجابه، وكانت أداته في ذلك التشبيه العذب، والاستعارة الجملية، والصنعة الخفيفة، والموسيقى الرقراقة المناسبة للجو النفسي.

[1] نفسه. ص 236.
[2] ابن خفاجة. الديوان. ص 236.

فالشاعر ابن خفاجة يرسم لوحة فاتنة للرياض وما فيها من عناصر الطبيعة ومن بينها الحمام، فيصف جواً مرحاً في إطار من اللهو جاء على شكل نزهة في رحاب الطبيعة، وقد أناخ ذات يوم بإحدى الأشجار هي شجرة السرح، يقول:

سُقياً ليـومٍ قَد أنَخت بِســرَحَة

ريَا تلاعبُـها الريَــاح فتَلعَب

سُكرى يغنّيـها الحَمام فتنَـثنَي

طَربا ويَسقيِـها الغَمام فتَشـربِ

يَلهَو فَترفع للشَبِيبة رايَــة

فيـه، ويَطلع للبـَهارة كَوكَب

والروضِ وجَه أزهَر، والظَل فَر

ع أسَود، والماء ثـغَر أشنَــبَ

فْي حيَث أطَربنَا الحَمَام عِشيـَةً

فشَدا يُغنيــنا الحَمامَ المطَرب

واهَتزِ عَطف الغُصْنَ من طَرب بَنا

وافتَـر عَن ثغر الهِلال المغرِبِ

فَكَأنه والحسَن مقتــرَن بِه

طُوق على بَرد الغَمامَة مَذهَب

رسم الشاعر في هذه الأبيات منظراً طبيعياً اتخذ الحمام فيه من الأغصان وطنَ شدوه، يغني عليها أعذب الألحان، وشكلت الروضة إطاراً عاماً لموضوع اللوحة، وجاء الحمام في إطار تمتع الشاعر بمناظر الطبيعه الغناء ذات الفتنة الرائعة، فقد عرض مشاهد طبيعية جمّة وخصها بالوصف: الأشجار بأغصانها اللدنة، وبنسماتها العليلة والغمام يحمل الخير، والندامى يشربون ويغنون ويطربون، والهلال يزيّن بحسنة وجماله منظر اللوحة الطبيعية، كان الشاعر رساماً بارعاً شأنه في ذلك شأن المصور الذي فتنته الطبيعة، فبادر إلى تخليد افتتانه قي لوحة يؤطر داخلها صورة الحمام الذي يغرد بأنغامه العذبة المطربة، والتي انتزعها من حوله، وآثر انتقاءها بعناية فائقة.

وفي منظر من المناظر التي رسمها الشاعر للحمام في خيال بديع، وهو في أحضان الطبيعة الفاتنة الساحرة، في مجلس من مجالس الأنس، وقد جعل شدوه وغناءه مصدر سعادة ، يقول الشاعر ابن سفر في وادي المرية بلدته:

واشَرب على شَّدُو الحَمام فَإنـَه

أشْهى إلي مِن الغَريضِ ومَعبـَد

أتَراه أطَربه الخَليـِج وقَد رَأى

تَصَفِيقَه تحَت الغُصُونِ الميّـد

وكأنـَهن رَواقِص مِن فَوقـِه

وبَها مِن الأزَهَـار شِبـهُ مُقَلدِ

جعل الشاعر في هذه المقطعة شدو الحمام ووقعه في سمعه أروع من غناء مغنيي المدينة: الغريض ومعبد. كأنما أطربه شدو المياه وخريرها تحت الغصون الراقصة المطوقة لجيدها بالأزهار الجميلة، لما فيه من عذوبة ولحن سامٍ رقراق، سانده خيال رائع وتصوير بديع.

وفي لوحة أخرى يرد فيها الحمام عنصراً من عناصر الطبيعة يقول الشاعر ابن خفاجة:

بحديقة مثل اللَّمى ظِلاً بــها

وتطلعت شَنَبا بها الأنـــوار

رقص القضيـبُ بها وقـد شرِبَ

الثرى وشدا الحمامُ وصَفَّق التيار

غَنّاء ألحَفَ عِطفَــها الوَرَقُ

النّدي والتـفّ في جَنباتها النوّارُ

فَتـطلّعت في كَل مَوقِع لحـظةٍ

من كَل غُصـنٍ صَـفحةٌ وعِـذارُ

فالطبيعة هي المعنى التي تتفجر منه شاعرية الشاعر، وفي أرجائها يطوّف خياله، إنها كائن حيّ، بصحبتها تطيب الساعات، وبأفيائها تحلو رقائق العيش، وربما كانت صرخة ابن خفاجة أصدق تعبير عن هيام الأندلسيين ببقعة لا يعدلون بها جنّة الخلد. فالطبيعة في شعره تظلّ بارزة، فإذا فرح شاركته حبورها، فهو مغرم بلوحاته يمتاح مادتها من الطبيعة كموضوع وحي لا ينضب: فالطيور قيان، وشدوها غناء، ورجعها موسيقى، والندى درر، والنور عقد والورق عطاء.

ثانياً – الحمام مثير وجداني ومنبه للذكريات:

من المألوف في الشعر الأندلسي أن تغدو الذكريات السعيدة مسترخية على وسادة الطبيعة الفاتنة، كأن ترى المشاعر المبهجة والحزينة معاً تهتز لسجع الحمام، وتهفو للمرابع والأوطان.

ولا يخفى على المتتبع لصورة الحمام في الشعر العربي أن فكرة الربط بين شجو الحمام وإثارة الذكريات والآلام والأحزان هي فكرة قديمة عرفها عدد غير قليل من الشعراء في العصور المختلفة، بيد أن الشعراء الأندلسيين قد يختلفون عنهم في طريقة معالجتهم لهذا الربط والنتائج التي يرتبونها عليه، بالإضافة إلى تفننهم في تأليف الصور والجزئيات المستحسنة، وطرق المزج بين الأندلسية في مظاهرها وأشكالها وأحوالها المختلفة المعاني التي تصور البيئة الأندلسية في مظاهرها وأشكالها وأحوالها المختلفة والنفسية الأندلسية في نزعاتها العديدة، وأحوالها الكثيرة وفي ظل العديد من الظروف والملابسات.

ومن اللوحات الشعرية التي كان الحمام فيها منبهاً للذكريات السعيدة، وموقظاً لأحاسيس البهجة والسرور قول الشاعر:

ونَشْوانَ غَنتَه حمامَـة أيَكة على

حين طَرَف النـَجَم قد هَم أن يَكرى

فهَبَ وريَح الفَجر عَاطِـرةَ الجَنى

لَطِيفِةَ مَس البَردَ طَيـَبة المسَرى

وطَافَ بهَا واللَيلَ قد رَثَ بـَردَه

ولِلصُبح في أُخرى الدُجىَ منـَكب

يَعرى ويَصْغى إلى لجُن فَصِيحَ يَهزُه

كما هَزَ نَشَر الريَحَ رَيحْانَةَ سَكَرى

تَهشَ إلَيهِ النَفسِ حتَّـى كَأنه

على كَبـِد نَعمَى وفي أذَّنِ بُشَّرَى

صنع الشاعر لتلك الحمامة موكباً بهيجاً من المعاني الرقيقة وحفلاً بديعاً من الألفاظ المهموسة المموسقة المنتقاة، إنها تعكس حالة من حالات السرور والبهجة والفرح والطمأنينة التي كان يعيش الأندلسي في رحابها في ظل الأمن والاستقرار والرخاء. وهكذا أدى الحمام دوراً جوهرياً بوصفة عنصراً في اللوحة الشعرية التي رسمها الشاعر، والتي استمد عناصرها من مفاتن الطبيعة التي تحيط به، فعبر فيها عن الجانب اللاهي المفرح الضاحك من الحياة، فكان الحمام في الصورة مجلبة للسرور، وباعثاً للفرح والحبور.

وإذا كانت اللوحة السابقة قد صورت الجانب اللاهي والمشرق ورسمت طابع السرور والمرح من حياة الأندلسيين في ظل الطبيعة بألوانها الزاهية، فثمة جانب آخر مغاير لصورة الحمام وهو الجانب الجاد الحزين من جوانب الحياة في الأندلس يكون فيه الحمام منبهاً لذكريات الشوق والحنين إلى الحبيب والأليف والأهل من ناحية، وموقظاً لذكريات الشوق والحنين إلى الأوطان والمدن التي فارقها أهلوها أو تلك التي أجبروا على تركها، والرحيل عنها بعد أن نزحوا عنها نزوحاً قسرياً من ناحية أخرى:

أ – الحمام ومشاعر الشوق والحنين إلى الحبيب:

ارتبطت الحمامة والحمام في الشعر العربي غالبا مع البين والفراق، ذلك أن نَوْحَ الحمامِ يُثيرُ الشُّجونَ، ويهيجُ الجوَى، ويُجدِّدُ الوَجْدَ. فأكثر الشعراء قد وقفوا عليها، وهي على الغصون تشجو، فكانت تذكرهم غربتهم، فمنهم من أحزنته، ومنهم من تعاطف معها، ومنهم من أشفق عليها، ومنهم من قاس غربته على أنينها.. وكانت بينهما ألفة وشجن واستنطاق، فلنسبر أغوار هذه العلاقة الغريبة والطريفة.

اتخذ الشاعر في هذه اللوحات من أحضان الطبيعة ورياضها وأيكها وأغصانها وعاءً رحيباً لكل مشاعر الشوق والحنين واللوعة التي انطوت عليها جوانحهم إبان فراقهم للحبيب والأليف والأهل يقول الشاعر:

ربِ ورقـَاء هَتوفَ بِالضُحَى

ذاتِ شَجو صَـدَحت فِي فِننِ

ذَكَرتُ إلِفا ودَهـرًا صَـالحاً

فَبَكَتْ حُزنـاً فَهاجَت حُزني

فبــُكائي رُبـمَا أرَقهَا

وبَكاهـَــا رُبَما أرقَني

ولقَد أشَـكو فَما تَفهـَمه

ولقَد تَشْكو فَما تَفَهـَمني

غَيـَر أنَي بالجَوى أعَرفَها

وهَي أيَضًا بِالجَوى تَعَرفَني

خلع الشاعر على الحمام صفات إنسانية، فجعله يرى الشاعر يبكي، فيبكى لبكائه، ويحزن لحزنه، ويشجو لشجوه، وهذا الأداء الفني والاندغام العاطفي هو قمة الجمال والروعة والقيم الفنية العالية.

وقد يجمع الشاعر إلى وصف الحمام وصفاً حسياً خارجياً: شكله ولونه وغنائه وصفاً نفسياً، فيندغم مع الحمام، ويندمج معه، ويحقق بذلك روح المشاركة الوجدانية، يقول الشاعر علي بن حصن:

ومَا هَاجَني إلا ابـَن ورقـَاء هَاتِف

على فَنن بَين الجَزِيــرة والنَّـهر

مَفَستَق طـُــوق لازُورد كَلكُل

مُوشَى الطَلى أحَوى القَوادِم والظُهَر

أدَارِ على اليـــاقُوتِ أجَفَانِ لُؤلُؤ

وصَاغَ على الأجَفَانِ طَوقاً من التَبر

حَديد شَباً المنْـــقَار دَاج كأنهُ

شَبا قَلم مِن فِضَـــة مَد في حَبر

تُوسَد من فـــرع الأراك أرَيكَة

ومَالِ على طَي الجَنـــاحَ مَع النَحَر

ولما رأى دَمِعي مَـــراقاً أرابَـه

بُكائي فاسَتـولى على الغُصَن النضر

وحثَ جَناحيـــه وصَفق طَائراً

وطَار بِقلبي حيَـــثُ طَار ولا أدَرِي

رسم الشاعر في الأبيات السابقة لوحة لفرخ حمام رسماً دقيقاً أبرز فيها ألوانه في براعة واقتدار، وظلاله في إعجاز بديع، رسم كل جزء من أجزاء جسم فرخ الحمام هذا الطائر الجميل، جسد جلسته، وتابع حركته، في رقة الألفاظ ورشاقتها، وثراء المعاني وغنائها، إنها صورة ساحرة رسمتها ريشة الشاعر لفرخ الحمام على فننه، مزجها بأحاسيسه وانفعالاته. وقد استخدم الحمام رمزا لحالته، فهو الذي يبكي وينوح محزونا لفرلق أليفته، إن هدير الهديل هاجه شوقا إلى محبوبته، وجعل قلبه يذوب شوقاً وحنيناً لها، وأحس الشاعر أنه- مثله — حزين مهموم لفراق صاحبته، وما قدمه الشاعر يعد تصويراً بديعاً استطاع فيه أن يبدع منه لوحة تامة الخطوط والألوان والظلال والأضواء. وقد حاول أن يضفي على الحمائم أيضا نوعاً من مشاركة الظواهر الطبيعية له في أحاسيسه النفسية.

وثمة صور ولوحات أخرى تعكس الجانب الجاد الحزين من جوانب الحياة في الأندلس، مع ما لها من خصوصية وتفرد للشاعر في تجربته الذاتية، يقول ابن عبد ربه كذلك، وقد سمع حمامة تشجو:

وَإِنَّ ارْتِيَاحِي مِنْ بُكَاءِ حَمَامَةٍ

كَذِي شَجِنْ دَوِيْتهُ بِشُجُــونِ

كَأَنَّ حَمَامُ الأيْك حِينَ تَجَاوَبتِ

حَزِينٌ بكَى مِنْ رَحْمَةٍ لَحَزِيــنِ

وَمِمَّا قِيلَ فِي ذِكر الحَمَامُ قَولُ ابن عبد ربه:

وَلِرَبِ نَائِحَــةٌ عَلى فَنَنٌ

تَشْجِي الخَلِيَّ وَما بِه شُجُو

وَتغـرَّدتْ فِي غُصْنِ أيْكَتِهَا

فَكَأنمَـا تغْرِيْدها شُجو

يذكر الشاعر في المقطعة الأولى حمامة صادحة على الأفنان في شجو وحنين، ويبدو ثمة أن حمامة كانت ذات شجو حزين؛ مما هيجت عواطفه حتى بلغ إحساسه الشعري ذروته عندما تصور تناغم شجو الحمامة الحزين وكأنه انبعث بكاء لحزنه، وأما في المقطعة الأخيرة، فإنه يكرر الصورة نفسها بأسلوب رقيق ينم على ترجمة ذات الشاعر إزاء عجائب مخلوقات الله ـ جل شأنه ـ وبإيمانه وقدرته وتأمله، يبدو للمتابع لصورة الحمام لدى الشعراء الأندلسيين أنهم عندما يسمعون تغريد الطيور كانوا يجدون في ذلك صورة تحرك مكامنهم ونغمة تهز قلوبهم وتشدهم إلى التناغي والاندغام معه.

ويرسم الشاعر لوحة متكاملة الأبعاد لحمامة رآها على غصنها المياد ، وحاول أن يمزج حالتها من الفراق واللوعة بحالته، يقول الشاعر يحي بن هذيل في وصف حمامة وأنينها محزونة لفراق صاحبها أو هديلها:

ومُرنّةٍ والدَّجـنُ ينسجُ فوقها

بُردين من طلٍ ونوءٍ بـــاكِ

مالت على طيِّ الجنـاحِ وإنما

جعلت أَريكتَـها قضيبَ أراكِ

وترنمت لحنين قد حلتــهما

بِغناءِ مُسمِعةٍ وأنّةِ شـــاكِ

فَفـقدتُ من نَفسي لفرطِ تلهُّفي

نَفس الحيـاةِ وقلتُ من أبكاكِ

حاول الشاعر أن يسقط حالته النفسية وتجربته العاطفية على الحمامة، فجسد الحمامة وهي ترن وتصدح والغيم يملأ أقطار الأرض والسماء ناسجا فوقها رداءين من طل ومطر تذرفه السحب، وهي محزونة قد مال رأسها على طى الجناح، متخذة من غصن الأراك أريكة لها ومقعدا، وشجاها فراق صاحبها، فهي تترنم بغناء ممزوج بأنين؛ الأمر الذي جعله يذكر حبه ويملؤه تلهفا لرؤية صاحبته حتى كأنما يوشك أن يفقد الحياة. ويبكي من حرقة هواه بصاحبته. ويسأل الحمامة سؤال العارف من أبكاك؟ فنحن في الهوى سواء.

وابن الخطيب؛ يبدو مستغرباً مستعجباً من هذا النوع من البكاء، وأنه يجب أن لا يدوم طويلاً، لأنه لم يصدر عن قلب جريح، وعن آهات حقيقية وإلاّ لكانت العواقب كبيرة أكبر من كونه مجرد صوت حزين، وشجو وشجن. فهي لم تسكن مسكناً وتفارقه، وهي لم تتخذ خليلاً وتجفوه، فعلام هذا البث والندب، يقول:

حَمامةُ البانِ ما هَذا البـــُـكاءُ

على مرّ الزمان وهذا الشُجُو والشجنُ

لامسكنٌ بنـــت عنه أنت تنْدبهُ

ولا حبيـــبُ ولا خلٌ ولا سكنُ

كفّ خصيـــبٌ وأطواقٌ ملونةٌ

ما هكذا البثّ يا ورقاءُ والشـــجنُ

لو كنْت تنْـفثُ عَنْ شوقٍ مُنيْتُ بهِ

يوماً لصـــار رماداً تحتك الغصنُ

إنها حالة من الآسي ولّدها الفراق في نفس الشاعر المعني، نفثات القرائح المكلومة والقلوب المعناة، إنه تصوير لفراق الأحبة والتشويق إليهم، إنه اندماج الشاعر بالطبيعة، وتصوير لمنزع الشوق والحنين في نفسه من خلال مشهد حمامة فريد. فقد كان الشاعر يستلهم من مناظر الطيور وأصواتها وألحانها وحركاتها كثيراً من جوانب الفرح والأ لم والسعادة والشقاء والتفاؤل والتشاؤم، تلك هي الحياة وذلك هو الإنسان في السراء والضراء.

ب – الحمام عنصر مثير لمشاعر الشوق والحنين للوطن والأهل.

أدى الحمام دوراً فاعلاً بوصفه منبهاً وجدانياً لمشاعر الفراق فراق الأهل والوطن، ففي قصيدة لابن زيدون يثير غناء الحمام شوقه وحنينه إلى أهله ووطنه بعد أن أبعد عن مدينته، يقول:

وأرَّق العيــنَ والظلماءُ عاكفةٌ

ورقاءُ قـد شفَّها إذْ شفَّني حزَنُ

فبتُّ أشكو وتشـكو فوق أيكتِها

وباتَ يهفُو ارتياحًا بينـَا الغُصنُ

هاجت حمامة ورقاء مشاعر الشوق في نفس الشاعر، وهو بعيد عن وطنه وأهله، فاستبد به الحنين، فأخذ يبث الحمامة مشاعره وأحزانه وعواطف الشوق، وهذا النص وليد تجربة شعورية صادقة تجربة مؤلمة عاشها الشاعر، يظهر الألم من كل عناصرها وجاءت معانيها باكية، وألفاظها حزينة وصورها شاكية، وموسيقاها تفيض بأنهار من الحزن والأسى، يتبدى للمتلقي من هذه القطعة أن ابن زيدون شاعر مرهف الحس، رقيق الوجدان انعكست في شعره أحداث السياسة التي انخرط في غمارها، الأمر الذي جعله يعيش شطراً من حياته شريداً طريداً بعيداً عن الأهل والأحبة والوطن، فشعر بحزن عارم سيطر على كل كيانه وأحاسيسه، و أنشد تلك القصيدة التي يناجي فيها أهله وأحبابه، فالإنسان حين يقسو عليه الدهر، ويبوء بالخذلان ينفض يده من دنيا الإنسان ويأنس بعالم الحيوان، واجداً فيه خير ما يسري عنه ويسليه.

وقد استخدم الشعراء الأندلسيون الحمائم؛ ليبثوا بها إحساساً نفسياً معيناً، وارتبط تصويرهم في الشعر بالسجع والبكاء، كما ارتبط أيضا بتلك المقارنة التي يعقدها الشاعر دائما بين إحساسه، وبين بكاء الحمام. وفي مكان آخر يقول ابن خفاجة:

سَجَعْتُ وَقَدْ غَنَى الحَمَامُ فرجَّـــعَاَ

وَمَا كُنْتُ لَوْلاَ أن يُغَنِي لأسْجُـــعَاَ

وَأنْدُبُ عَهْـــداً بالمشَقَّر سَالفاً

وَظَّل غُمَامُ للصِـــبَا قدْ تَقَشعاَ

وَلمْ اَدَرِ مَا ابْكِي أرْسُم شَبِيـــبَةَ

عَفَا أمْ مُصَيــفاً مِنْ سُلَيْمىَ وَمُرَبِعَا

وَأوْجَعِ تَوْدِيعِ الاحبـــَةِ فُرَّقَةَ

شَبَابُ علَى رُغمِ الأحِبـَــةِ وَدَعاَ

غلب الشوق والحنين على نفس الشاعر، إذ نزح عن بلده(شقر) مع مَنْ نزحوا طلباً للنجاة، كانت نفسه مفعمة بالآسي، كان يعيش في مهجرة على حين كان قلبه ومشاعره رهين وطنه ومدينته. لقد هاج الحمام في نفسه الشجو فراح يستعيد ذكرياته الدفينة في أسي ومرارة، باكياً أيامه الخوالي، أيام الصيد وعهود السنا. فسجع الحمام يخلف في النفس حسرة، وفي القلب لوعة، وفي العين دمعة، فبالحزن الممضّ يندب الشاعر ما مضي من أيامه البهيجة.

لقد قدر للأندلسيين أن يعيشوا محنة اغتراب مريرة، رحلوا عن أوطانهم، وتركوا معاهدهم وديارهم، وفارقوا أهاليهم وأحبابهم إلي غير رجعة، فظلت الطبيعة تستشير في نفوسهم أحاسيس الغربة والحنين، فالغربة في أشعارهم كانت بكاء على الطبيعة الأندلسية التي عاشوها وامتزجوا معها. فالغربة هي تذكُّر الطبيعة، والطبيعة هي الوطن ذاته، يقول الشاعر ابن سعيد:

أيْنَ حِمْص؟ أيْنَ أيَامِي بِهَا؟

وَحَمَامُ الأيكَ يَشْدُو حَوْلنَا

كَمْ تَقَضَى لِي بِها مِنْ لَذةٍ

حيْثُ للنَهْرُ خَرِيـرُ مُطْرِبُ

وَحمَامُ الأيْكَ تَشـدُو حَوْلنَا

وَالمثَانِي فِي ذُرَاهَا تُصْخَبُ

أيُّ عيـشُ قَد قَطَعْناهُ بِهَا

ذِكْرَهُ مِنْ كُلِّ نِعَمى أَطْيَـبُ

وهكذا نجِدُ أنَّ أكثرَ المواضِعِ الَّتي ذُكِرَ فيه الحَمامُ: هي مَواضِعُ الحُزْنِ، ومواقِفُ الأسَى؛ فحينَ شَكَا الشَّاعِرُ الفراقَ، ووصَفَ الحنينَ والاشتياقَ؛ رأيناهُ يذكرُ الحَمامَ، ويستعينُ بها في تصويرِ وَجْدِهِ، والتياعِهِ، وحينَ فُجِعَ الشَّاعِرُ بأحبابِهِ؛ وجدناه يذكرُ الحَمامَ في رثائِهِ. واستعملَ- في كُلِّ ذلك - ألفاظًا حزينةً، ملائمةً للسِّياقِ؛ فالحمائمُ (تنوحُ)، و(تبكي)، و(تنطِقُ بالحنين)، و(تهيجُ أشجانَ الفؤاد)، وهي (محزونة)، (مفجوعة) بأليفِها.

ثالثاً- الحمـــــــام رمـــز ديـــــني:

اتخذ بعض شعراء الاتجاه الديني من الحمام رمزاً للتعبير عن عواطفهم الدينية، وأفكارهم وتجاربهم الحياتية.

فالشاعر أبو إسحاق الإلبيري يربط بين بكاء الحمام وشدوه و بكاء التائب من كثرة ذنوبه ومعاصيه فيقول:

أَحَمامَةُ البيداء أطلّتْ بُكـاكَ

فَبِحُسْنِ صَوْتِكَ مَا الَّذي أبْكـاكَ؟

إنْ كاَن حقاً مَا ظَنـنَّتُ فَإنَّ بِي

فـَوقَ الَّذي بِكَ مِن شَديدُ جَّواكَ

إني أظُنَكَ قَد دَهَيـْتُ بِفَـرَقَـة

من مُؤنِسُ لَكَ فاَرْتَمَضَتْ لِذَلِكَ

لَكِنَّ مَا أشْكُوهُ مِنْ فُـرَطُ الجُوَى

بخَـلافُ مَا تـَجَديْنَ مَنْ شَكْواَكَ

أناَ إنَّما أبْكِي الَذنـُوبُ وأَسَرهَـا

وَمَناْي فِي الَّشكوى مَنَالُ فَـكَاكِي

وَإذَا بَكيـْتُ سَألْتُ رَبِي رَحَمةِ

وتـجاوزاً فَبـُكَاي غَير بُكَاكَ

وابن عربي الشاعر الصوفي المسلم يصطنع أساليب شعراء الغزل العذري، فيكثر من الشكوى والبكاء والحنين، وقد أفاض في وصف ما يعانيه من العشق الإلهي يقول:

نَاحَت مُطـَـــوَقَةٌ بِحق حَزيـِنِ

وَشُجَاةُ تَرجِيـــعُ لهَا وَأنيَـنِي

جرتِ الدُّمـوعُ منَ العيـونِ تفجُّعاً

لحَنينَها كَأنهنَّ عيـــونُ

طَارَحْتـُهُمَا ثُكْلاً بِفقدِ وَحِيـــدَهَا

والثُّـكلُ منْ فقدِ الوحيــدِ يكونُ

بي لاعجٌ منْ حــبِّ رملــةِ عالجٌ

حيثُ الخيامُ بها وحيــثُ العيــنُ

من كلِّ فاتــكةِ اللِّحــاظِ مريضة

أجفانُها لِظُبــا اللِّحاظِ جفــونُ

ما زلتُ أجـرعُ دمعتي مــن غلَّتي

أُخفي الهوى عــن عاذلي وأصونُ

وتجئ الحمامة عند الشاعر ابن عربي رمزاً للحقائق الإلهية والواردات الصوفية، وهي من مصورة "الحمامات النائحات" تتجلي في قول الشاعر:

ألا يَا حمَامــَاتُ الأراكة والبانِ

ترَفّقْنَ لا تُضْعِفْنَ بالشــجوِ أشْجَانِي

ترَفّقْنَ لا تُظهرنَ بالنّوح والبُــكَا

خفيَّ صَبَاباتٍ ومَكْنــُونَ أحْزانِي

أُطَارحُها عِنَد الأَصِيــلِ وبَالضُحَى

بحنَّة ٍ مشتاقٍ وأنَّــة ٍ هيــمانِ

تَنَاوَحَتِ الأرواحُ في غَيضَة ٍ الغَضا

فمالتْ بأفنـــانٍ عليَّ فأفناني

وجاءتْ منَ الشَّوقِ المبرَّحِ والجوى

ومن طُرَفِ البــلْوَى إليّ بأفْنانِ

فمَن لي بجمعٍ والمحصَّب مِـن مِنًى

ومَنْ لي بِذاتِ الأثْـلِ مَنْ لِي بنَعْمانِ

تطوفُ بقلبـي ساعـةٌ بعدَ ساعةٍ

لوَجدٍ وتبــريحٍ وتَلثُـمُ أركانِي

لجأ الشاعر ابن عربي إلى الصور الحسية؛ لتجسيد معانيه الصوفية، وهكذا جاءت صور الحمام معبرة عن تجارب الشعراء الأندلسيين وأحاسيسهم، وجاءت تعبيراً فنياً صادقاً عن معاناة حقيقية للشعراء، ومشاركة وجدانية منهم نحو عناصر الطبيعة حب الطبيعة والتعبد في محرابها.

رابعاً – الحمام عنصر أساس في بناء القصيدة:

ومن مظاهر افتنان الشعراء بالطبيعة وعنايتهم بها عناية كبيرة استغلالهم للحمام بوصفه عنصراً من عناصر الطبيعة ، فجعلوها في مطالع قصائدهم ومفتتحاً لها بدلاً من الدمن والأطلال، يضعونها تيجاناً على رؤوسها متأثرين في ذلك بانفعالهم بمفاتن طبيعتهم وجمالها الساحر الخلاب. فأصبح الحمام بذلك عنصراً أساساً في منهج بناء القصيدة الأندلسية، ويتجلى ذلك واضحاً في مطالع القصائد المتعددة الأغراض والموضوعات.من مدح وغزل ووصف وغيرها. يقول ابن خفاجة في مطلع قصيدة يمدح فيها الأمير أبي إسحاق بن يوسف بن تاشفين:

سَجِعْتُ وَقَدْ غَنَى الحَمَامُ فَرجَــعَا

وَلَمْ اَدْرِ مَا ابْكِي أرْسَم شَبِيــبَةِ

عَفَا أمْ مَصَيــفاً مِنْ سُلَيْمَى وَمُربعَا

زمانٌ تَقَضّى غَيــــرَ عَهدِ مَحاسِنٍ

تَسومُ حَصـــــاةَ القَلبِ أَن تَتَصَدَّعا

استغل الشاعر ذكر الحمام في مطلع قصيدته, ليكون مدخلاً للحديث عن شوقه وحنينه إلى مسقط رأسه في وطنه مدينته "شقر".

وقال في قصيدة أخرى:

ألا ساجلْ دموعي يا غَمامُ

وطَارِحِني بِشُجُوكِ يَا حَمامُ

وقال ابن شهيد في مستهل قصيدة له:

وَمِمَّا شَجَانِي فِي الغُصُونَ حَمَاَحِم

تَجَاوَبَ فِي جُنـحِ الظَّلامُ حمَائَماَ

يَرْجَعْنَّ أَلحَاناً لهَّن شَوَاَجِيــَا

فيَرْسَلْنَّ أَسْرَابُ الدُموعَ سَوَاَجِماَ

سَقَى الله أَيْكَا مَا يــَزَالُ حَمَامَه

يهَيـِجُ مُشْتـَاقًا وَيُسِعدُ هاَئِمَا

في مثل هذه اللوحات التي رسمها الشعراء للحمام إبراز لقدرتهم على رسم مناظر طبيعية نابضة بالحياة والحيوية والحركة والألوان والإصباغ. لوحات هي بمثابة صورة فتية صادقة لطبيعة الأندلس فسحرها وجمالها. لوحات اعتمد فيها الشاعر في وصف الحمام على عنصري اللون والصوت والحركة، تجاوب مع الحمامة ثم مزج ذلك كله بناء جوانحه ونبضات قلبه.

وهكذا نجد أن الشعراء الأندلسيين قد استخدموا الحمام استخداماً له دلالته النفسية في شعرهم، فقد وجدناهم يعبرون عن الضعف البشري في الحب عن طريق إسقاطه على الحمام، كما وجدناهم أيضا يرمزون إلى هذه الحالة وتناقضاتها معهم.

خاتـــــــمة

خـــــــــــــاتمة:

من خلال هذه الدراسة المتواضعة الموسومة بـ: "رمز الحمام في الشعر الاندلسي" و التي حاولنا فيها تسليط الضوء على حضور الرمز عند شعراء الأندلس فتوصلنا للنتائج التالية:

- إن الطبيعة ساهمت و ظلت تتصدى الشعراء و تبعث فيهم وصال الحبيب و انبساط النفس حتى وصلت قصديتها ، فمن ذلك يوجد سببين هما ميل الشعراء الى اعطاء المنظر الطبيعي حقه الكامل والسبب الثاني شدة عنايتهم بالتفاصيل والجزئيات دون ان يتركوا شارده ولا وارده الا وصفوها.
- الشعر الاندلسي الذائع في وصف أرض الأندلس، و طبيعتها فنظر اهلها اليها، و عيشهم في ظلالها، قول محمد بن سفر أحد شعراء القرن السادس هجري.
- شعر الطَّبِيعَة هُوَ شِعْرَ رقيق ينضج بمحبة الأندلس و الأُنس بما فيها من جمال الطبيعة.
- و هناك اتجاهات للأندلس في الشعر، الاتجاه المحافظ و الاتجاه المحدث، والاتجاه المحافظ الجديد و هناك اتجاهات اخرى خاصة بشعر الطبيعة.
- التغني بجمال طبيعة بلادهم، وصف مجالي طبيعة الاندلس، ووصف مجالس الاندلس ، وصف قصور الاندلس.
- كما لعب الرمز دورا مهما في شعر الطبيعة و هو تلك الاثارة الحسية التي تمتاز بالإيحاء و غير المباشرة و الرمزية و هي صورة موحية لا تنص على المضمون صراحة أو مباشرة و انما توحي به و تشير اليه و هي ترتبط ارتباطا وثيقا بالتجربة الشعورية و تدل دلالة قاطعة على عمق التجربة الشعرية و على نجاحها كما تدل أيضا على جمالية الصورة و فنيتها هذا ما أشار اليه شعراء الأندلس.
- و هناك انواع للرمز منها:

- الرمز الادبي و هو الرمز الذي ينتقل من شاعر الى آخر و هو الذي يمارس وظيفته في اطار ثقافة عامة
- الرمز الاسطوري: وهو غالبا ما يكشف عن نفسه بوصف احتضان المنقلبات و التشبث بالحاضر حيث يكشف لنا الهوية بين الذات و الموضوع.
- الرمز الوصفي: و هو الذي يحمل في طياته معنى باطنيا عميقا لا يمكن الظفر به.
- الرمز التراثي: هو الذي تطغى عليه العراقة و الإصالة.
- الرمز العلمي: هو ما ينوب و يوحي بشيء آخر لعلاقته من قرابة و اقتران الرمز عن الغرب و العرب و كيفية اهتمام الشعر بالرمز

و من أهم الشعراء الأندلسيين الذين وظفوا رمز الحمام هم ابن خفاجة ، ابن زيدون ، ابن عبد ربه ، ابن الخطيب و ابن عربي.

و منه نستنتج ان هناك الكثير من الشعراء الاندلسيين اللذين وظفوا رمز الحمام في شعرهم بأنواع وتعابير مختلفة، و رمزية الحمام تعني الألفة و الفراغ و الشوق و كذلك يدل على ثبات العهد بصون ما ينبغي أن يصان و حفظ ما ينبغي أن يحفظ.

حيث وظف ابن خفاجة و ابن زيدون و ابن عربي و ابن عبد ربه و ابن الخطيب و هم من الذين اهتموا بالحمام في بنية قصائدهم وتغنوا به.

و في الختام نأمل أن يكون بحثنا قد وفق في إزالة بعض اللبس و الغموض عن الجدارية و عن مصادر رموز ابن خفاجة و أمثاله المتنوعة التي لا تنتهي بانتهاء لغته، و إن فقدنا ابن خفاجة و أمثاله فنحن نأمل أن يبرز في الساحة الأدبية آخرون، كما نأمل أن يستفيد الطلبة من هذا العلم.

قائمة المصادر و المراجع

قائمة المصادر و المراجع:

القرآن الكريم برواية ورش عن نافع

قائمة المصادر:

1- أحمد فؤاد سلطان مجلة جامعة الاقصى، مج14، 2010.

2- توفيق بن عامر دراسات في الزهد و التصوف، دار صادر بيروت لبنان، دط، 1999.

3- خليل مرسي قراءات في الشعر العربي الحديث المعاصر، اتحاد الكتاب العربي، دمشق، دط، 2000م.

4- درويش الجندي الرمزية في الادب العربي، دار النهضة مصر للطباعة ، القاهرة، ط2، دت.

5- رجاء عبيد لغة الشعر قراءة في الشعر العربي الحديث مطبعة الملس، القاهرة ، دط ، 1985.

6- سعيد بن زرقة، حداثة في الشعر العربي، ابحاث للنشر و التوزيع، لبنان ، ط2، 2006م.

7- سميح القاسم، الديوان، دار العودة ، بيروت لبنان ، دط ، 1987.

8- شابق بن عكاشة في نظرية الادب، ديوان المطبوعات لجامعة بن عكنون الجزائر،ج1، دط، دت.

9- عاطف جودة نظرة الرمز الشعري عند الصوفية مكتبة العصرية لتوزيع المطبوعات القاهرة ، 1998.

10- عبد العزيز عتيق، الادب العربي في الاندلس، دار النهضة العربية للطباعة و النشر بيروت، ط1، 1978.

11- عز الدين اسماعيل، الشعر العربي المعاصر قضاياه و ظواهره الدينية، دار العودة و دار الثقافة ، ط3، 1989م.

12- علي جعفر، حداثة النص الشعري دراسة نقدية، دار الشروق للتوزيع القاهرة، ط1، 2015.

13- فؤاد افرام البستاني، روائع ابن خفاجة و منتجات شعرية، دار المشرق. د ط ، د ت .

14- فنون الادب العربي المعنى الغنائي الوصف يشترك في وضع هذه المجموعة لجنة من ادباء الاقطاب العربية، دار المعارف القاهرة، مصدر دت، دط- محاضرات في الشعر الاندلسي في عصر الطوائف الاستاذ محمد حمدان حجابي.

15- محمد غنيمي الادب المقارن، دار العودة بيروت لبنان ، دط ، 1983- محيي الدين ابن عربي، ترجمات الاشواق ، دار بيروت للطباعة و النشر، بيروت لبنان، ط1، 1401هـ/1981م.

16- مجدي وهبت معجم مصطلحات الادب، مكتبة لبنان، دط ، 1974..

17- محمد عيش الشعرية الخطاب الصوفي الرمز الشعري عند ابن فارس نموذج منشورات كلية الآداب و العلوم الانسانية الرباط ، ط2، 2003.

18- مصطفى ناصف الصورة الادبية، دار الاندلس بيروت لبنان ، ط3، 1983.

19- محمد رضوان الداية، في الادب الاندلسي، دار الفكر المعاصر ، بيروت لبنان ، ط1، 2000.

20- ناصر الوحني، الرمز في الشعر العربي ، ط1، عالم الكتاب الحديث، ابرد الاردن 2011.

21- وضحي يونس قضايا النقدية في الشعر الوصفي، مطبعة اتحاد الكتاب العربي، دط، دت.

22- ياسين الايوبي مذاهب الادب معالم و انعكاسات الرمزية، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع ، بيروت لبنان ، ج2، ط1، 1982.

23- يوسف طويل، مدخل الى الادب الاندلسي دار الفكر اللباني بيروت، ط1، 1991.

قائمة المراجع:

1- أحمد حسن هيكل ، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ، دار المعارف القاهرة ابراهيم رماني الغموض في الشعر العربي القديم ،ماجستير جامعة الجزائر 1987.

2- ابن خفاجة، أبو إسحاق إ براهيم، الديوان، دط .تحق مصطفى غازي، الإسكندرية، منشأة المعارف، دار صادر بيروت.1960م.

3- ابن رشيق القرواني العمدة في محاسن الشعر آدابه و نقده، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، دار الحيل بيروت ط1، 1981.

4- ابن زيدون، دار بيروت للطباعة و النشر ، بيروت ، شرح و تحقيق كريم النسائي د ط، 1975م.

5- ابن عثمان عمرو بن بحر الجاحظ كتاب الحيوان تحقيق عبد السلام هارون، دار الحياة التراث العربي، بيروت لبنان، ج3، ط3، 1377هـ/1997.

6- ابن منظور لسان العرب، مج 3، دار صادر بيروت ، دط ، 1997.

7- ابن كثير، تفسير القرآن الكريم ، دار مصر للطباعة و النشر ، القاهرة، دط ، دت.

8- شعر ابن خفاجة دراسة نحوية صرفية دلالية ، رسالة لنيل درجة ماستر.

9- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي عصر الدول الامارات الاندلس، د/شوقي ضيف، دار المعارف القاهرة ، دت ، دط

فهرس
الموضوعات

الموضوعات	الصفحة
مقدمة	أ-ب-ج
الجانب النظري	
مدخل: الامتداد الشعري بين العصر العباسي و الأندلسي	
الفصل الأول: الطبيعة في الشعر الأندلسي	
1- الشعر الاندلسي	18
1-1- أصل تسمية الأندلس	18
أ- فتح بلاد الأندلس	19
اولا: عصر الولاة	20
ثانيا: العصر الأموي	20
ثالثا: عصر ملوك الطوائف	20
رابعا: عصر المرابطين	21
خامسا: عصر الموحدين	21
سادسا: العصر الغرناطي	21
1-2- الشعر الأندلسي	21
1-3- اتجاهات الشعر الاندلسي	22
اولا: الاتجاه المحافظ	23
ثانيا: الاتجاه المحدث	23
ثالثا: الاتجاه المحافظ الجديد	24
2- شعـــر الطبيـــــــــــــــــعة	25
2-1- اتجاهات الاندلسيين في شعر الطبيعة	30
2-1-1- التغني بجمال طبيعة بلادهم	30
2-1-2- وصف مجالي طبيعة الاندلس	31
2-1-3- وصف مجالس الاندلس	33
✓ سمات شعر مجالس الأندلس	34
2-1-4- وصف قصور الاندلس	35
الفصل الثاني: الرمز في الشعر الأندلسي	
1- تعريف الرّمـــــــــــز	39

أ- لغـــــة	39
ب- اصـــــطلاحا	40
2- أنواع الرمـــــــــــز	41
2-1- الرمـــــز الأدبـــــــي	42
2-2- الرمز الأسطوري	44
2-3- الرمز الصوفـــــــي	46
2-4- الرمز التـــــــــــراثي	48
2-5- الرمز العلـــــــــــمي	49
3- الرمز عند الغرب والعرب	50
4- الشعراء الذين وظفوا رمز الحمامة في شعرهم	54
رموز الطيور	57
الفصل الثالث: نظرة في حياة الشعراء الذين وظفوا رمز الحمام في الشعر الأندلسي	
نظرة في حياة ابن خفاجة	63
اسمهُ ومولده	63
نشأته و شبابه	63
عصر ابن خفاجة	64
أسلوب شعره	65
وفاته	66
نظرة في حياة ابن زيدون	67
اسمه و مولده	67
نشأته	67
أسلوب شعره	67
وفاته	68
نظرة في حياة ابن عربي	69
اسمه ومولده	69
نشأته	69
أسلوب شعره	70
وفاته	70

نظرة في حياة لسان الدين ابن خطيب	71
نسبه ومولده	71
نشأته	71
أسلوب شعره	72
وفاته	74
نظرة في حياة ابن عبد ربه	75
اسمه و مولده	75
نشأته	75
أسلوب شعره	75
وفاته	76
الجانب التطبيقي	
الحمام و رمزيته عند الشعراء الأندلسيين	78
اولا: الحمام عنصر من عناصر الطبيعة الاندلسية	84
ثانيا: الحمام مثير وجداني و منبه للذكريات	87
ثالثا: الحمام رمز ديني	97
رابعا: الحمام عنصر اساس في بناء القصيدة	98
خاتمة	101
قائمة المصادر و المراجع	103
فهرس الموضوعات	107